وقفات تدبرية وفوائد مختصرة
مع
آيات سورة الفاتحة

جمع وترتيب

أحمد عبد الله الدوسري

الطبعة الأولى

١٤٤٣هـ/٢٠٢١م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله على نعوته الجليلة وأفعاله الجميلة، مستحق الحمد وأهل الثناء والمجد، وأصلي وأسلم على خير خلقه وخاتم رسله سيدنا محمد.

أما بعد:

إنها سورة الفاتحة، سورة الهداية والنعمة، وسر الخلق والأمر، هي الفضل المبين والخير العميم الذي هو للمؤمن نور وهدى وورحمة وبشرى.

في هذه الصفحات نقف خاشعين أمام جلال وجمال أنوار الحمد والرحمة، والعبادة والنعمة، نتواصى بالحق، ونتأمل ونتدبر ونتفكر في بعض من معاني وهدايات سورة الفاتحة، أعظم سورة في القرآن، بل هي أم القرآن كله.

لقد جاءت الفاتحة لتحرر العقل البشري من أدران الشرك، وتبعده عن الزيغ والضلال، وتركز فيه عقيدة

التوحيد، وتوجهه إلى الخالق الديان، وتؤصل فيه الإخلاص لرحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، جاءت لترسم للمرء الغاية من حياته، وتُرْشده إلى وسيلة تحقيقها، فيزداد المؤمن إيمانًا وصِلَةً برب العالمين.

إنه مهما تحدث المتحدثون، وكتب المفسرون، وحاضر ودَرّس الفقهاء والمعلِّمون على مر الأزمنة والعصور، تبقى سورة الحمد منهلًا لا ينضب، يستحق أن تبذل الجهود في بيان دلالتها العظيمة ومقاصدها وأسرارها، وإعادة صياغة ذلك البيان بأسلوب سهل، بعيدًا عن الإسهاب العلمي المتخصص، من أجل توضيحه وتبسيطه لعامة المسلمين، وتذكيرهم بفضل السورة وهدايتها، فهي أعظم وحي نزل من السماء على الإطلاق، هي سر الهداية، هي سر الحياة، هي أنشودة المؤمن في كل حين.

ولاهتمامي بها وكثرة قراءتي عن أسرارها ومعانيها التدبرية، رجعت إلى كثير من المصادر المتنوعة، واقتبست بتصرف أحيانًا كثيرًا مما كتب عنها في أكثر من كتاب ومؤلف، أو منشور على الإنترنت، أو مما سمعته من مقاطع صوتية، أو

على اليوتيوب من أهل العلم الثقات المشهود لهم بالفضل، فجمعت ما اطلعت عليه، ودونت ما اطمأنت نفسي إليه، راجيا أن أكون قد أحسنت فيما استحسنت جمعه، فلم أحرص على مادة علمية عميقة، بل تخففت من بعض القيود والأمور التي ينبغي أن تراعى في تأليف الكتب العلمية، مبتعدًا عن اللغة الأكاديمية العلمية، قاصدًا توضيح المعنى والفوائد التدبرية بشكل مباشر، والتشويق والتخفيف على القارئ غير المتخصص في العلم الشرعي.

وكنت أرجو لو أني احتفظت بنسبة كل قول إلى قائله، لكن لم أتمكن لطول الوقت الذي استغرقه هذه البحث، فأستسمح كل من اقتبست منه أو أخذت عنه ولم اذكر اسمه، وأجره على الله، وحسبنا من ذلك نشر العلم وتقريبه للناس.

وإني لا أدعي لنفسي في ذلك شيئًا، بل الفضل في ذلك كله لله تعالى وحده، ثم لأهل العلم الذين جمعت عنهم أطيب الثمر، ممن دونوا وسجلوا، وأسماؤهم معروفه ومؤلفاتهم منشورة ومقاطعهم الصوتيه مبذولة، لكني اجتهدت واقتبست من كلٍّ أفضل ما لديه من الفوائد واللطائف والمعارف التدبرية،

وأخرجتها ورتبتها على شكل جمل مختصر وبأسلوب سهل ما أمكن، فاقتصر دوري على الجمع والترتيب.

وقد يلاحظ القارئ بعض التكرار عند شرح معاني الآيات الكريمة، مع تغيير الصياغة والأسلوب، وذلك بسبب تعدد النقل من المصادر، وهو مفيد أيضًا لتبسيط المعنى وبيان الشرح التدبري على أكثر من صورة.

وختامًا، فإنها محاولة جديدة لنشر العلم النافع والتواصى به، بأن نتدبر سورة الفاتحة كمنهج للإيمان والعمل الصالح، فهو السبيل للنجاة والطريق الموصل إلى الجنة، فإن أصبت فمن الله جَلَّجَلَالُهُ وله الحمد والشكر، سائلًا المولى جَلَّجَلَالُهُ أن يجزل المثوبة لمن جمعت عنهم، ولكل من شارك في مراجعة أو تصحيح لتعم الفائدة، وحسبي من ذلك نشر العلم ونفع إخواني المسلمين.

أحمد عبد الله الدوسري

محرم ١٤٤٣ هـ

dosar2022@gmail.com

❊❊❊

تعريف عام

بين يدي السورة

سورة الفاتحة هي أعظم سورة في القرآن، وهي خير ما نزل من السماء إلى الأرض، وسميت «القرآن العظيم» دلالة على أنها اعظم سورة فيه، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هِيَ السَّبْعُ المَثَانِي، وَالقُرْآنُ العَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ**»(١).

لم ينزل الله مثلها في كتبه، هي «أم الكتاب» دلالة على أنها جمعت كل القرآن، وهي في أربعة سطور، فهي فهرسه - إن صح التعبير - فما أحرانا بالاهتمام بكل حرف فيها.

اشتملت سورة الفاتحة على مضامين القرآن من المعارف القرآنية والعلوم الكلية، فاشتملت على مقاصده ومطالبه ومعانيه الجليلة واحتوت أسراره.

هي تحمل الوحدة الموضوعية التي تدور حولها مطالب القرآن الكريم كلها، وكليات العقيدة الإسلامية، وكليات التصور الإسلامي، وكليات المشاعر والتوجهات، وهذا

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: ما جاء في فاتحة الكتاب (رقم ٤٤٧٤).

ما يشـير إلى طرفٍ مـن حكمة اختيارها للتكـرار في كلِّ ركعة، وحكمة بطلان كلِّ صلاة لا تُذكَر فيها.

فيها قواعد كلية تلخص الدين من أوله إلى آخره، لايخرج منها شـيء مما أراده الله عَزَّوَجَلَّ من عباده، فكل ما جاء في كتاب الله هو تفسير لها وبيان لمعناها.

فيهـا أسـرار المبدأ والمعاد، فحريٌّ بنـا أن نجعلها منهج حيـاة، إذ هي تعدل كل القرآن، وبناء على ذلك كانت مشـتملة على غاية الكمال الإنساني.

سـميت بالفاتحة لأنه افتتح بهـا المصحف، ولأنها مفتاح القرآن، أي لمعانيه، فيها تفتتح كل سورة من سوره، فكل كنوز القـرآن فيها، ولو فهم المرء الفاتحة فسـيفهم كل سـور القرآن التي بعدها.

في وضع الفاتحة بداية المصحف إشارة إلى أنه ينبغي البدء بالأهـم قبـل المهم، وبالأصول قبـل الفروع، فسـورة الفاتحة شـافية لأمراض القلوب والأبـدان، وحاجة القلوب إليها آكد، وسر الشفاء فيها خشوع قلبك واليقين فيه.

حمد الله هو الذي تدور عليه السورة، بل أول الخلق ابتدئ بالحمد وآخر ما ينتهي إليه الخلق إلى الحمد، وخلق السماوات والأرض بالحمد، وحين ينتهي الجزاء يكون إليه الحمد، ولهذا صار الحمد أعظم ما يفتتح به الكتاب العظيم.

هي ملخص مطالب الله الرحمن الرحيم من الإنسان، وهي تسمى سورة الكنز؛ لأنها خفيفة اللفظ، لكنها ثمينة النتائج لمن سعى في امتثالها.

هي الواجبة في الصلوات، فلا صلاة إلا بها، وهي الكافية، تكفي من غيرها ولا يكفي غيرها عنها.

هي الوافية لأنها وافية بما في القرآن من المعاني، وتفي بالمعرفة الضرورية للإنسان، وتفي بحسن عاقبته وبطيب حياته.

هي سورة الحمد لأنها ابتدأت بالحمد.

وهي السبع المثاني لأنها تثنّى في كل صلاة[1].

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: ما جاء في فاتحة الكتاب (رقم ٤٤٧٤).

وهي فاتحة الكتاب كما سماها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1] وهي مفتتح كل خير.

هـي الشـافية؛ لأنها إذا امتُثِلـت شـفت الإنسـانية من كل أدوائها الحسية والمعنوية، كما أنها رقية، كما دل ذلك الحديث الصحيح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[2].

هي سورة الصلاة، فكلها ثناء على الله، فأنت تثني بها على الله تعالى فيثني بها عليك، فالسورة تعلّم المرء كيف يتعامل مع الله، فـإن أراد الدعاء فيسـتحّب له أن يثني علـى الله أولًا، فيبدأ بحمد الله تعالى وتمجيده، ثم الصلاة على رسـوله، وبعد ذلك يدعو بما يشاء، فإنَّ دعاءه يستجاب بإذن الله.

هـي أم القـرآن[3] ففيهـا اثبـات التوحيد واثبات الرسـاله

(١) أخرجـه البخـاري في كتاب الأذان، باب: وجوب القـراءة للإمام والمأموم في الصلوات (رقم ٧٥٦) ومسـلم في كتاب الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (رقم ٣٩٤).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الإجارة، باب: ما يعطى في الرقية على أحياء العرب بفاتحـة الكتـاب (رقـم ٢٢٧٦) ومسـلم في كتاب السـلام، باب: جـواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن والأذكار (رقم ٢٢٠١).

(٣) أخرجـه البخـاري في كتاب التفسـير، بـاب: قولـه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [سورة الحجر: آية ٨٧] (رقم ٤٧١٤).

بنتيجتها وانقسام الناس فيها، المنعَم عليهم والمغضوب عليهم والضالين، والحديث عن اليوم الآخر.

هي سورة المناجاة، إن تلاوة سورة الفاتحة تفتح لك أعظم أبواب الشرف، وهو الحوار مع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى حيث إن أعلى وصف وأشرف وصف في الوجود هو وصف العبودية «قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ»[1] فأنت تخاطب بلفظ العبودية ٨ مرات، فتستشعر أنك كلما قرأت سورة الفاتحة فإنّ الله تعالى يجيبك، فأي شرف هذا! حوار يكرر رب العزة ذكرك فيه بالعبودية ويكافئك بالإجابة، مع أنك لم تأت بجديد، ولم تتفضل بشيء من عندك.

هي أول سورة في القرآن على اسم فاعل، ولا يوجد فتح إلا بعد اغلاق، يعني أنها في أول سور القرآن، والبداية هي الفتح، هي مفاتيح لقلبك المغلق، هي مفاتيح لفهم القرآن حيث يقرؤها المسلم في كل ركعة من صلاته.

هي بحق سورة العبودية؛ في أولها توسل بالحمد والثناء

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (رقم ٣٩٥).

والتمجيد لمستحق العبودية جَلَّوَعَلَا وفي أوسطها توسل وإقرار واعتراف بالعبودية، وفي آخرها وصف لطريق العبودية، وسؤال وطلب تحقيقه، والهداية إلى الاستقامة على الصراط المستقيم، وأنه لا سبيل له إلى الاستقامة إلا بهدايةِ ربِّه له؛ كما لا سبيلَ له إلى عبادته إلا بمعونته، فلا سبيل له إلى الاستقامة على الصراط إلَّا بهدايته.

هي سورة التربية، تعلمك الشكر على نعمه، والثناء عليه بكل ما له من أسماء وصفات ومحامد، ثم تربيك على الرحمة. وتكرر أربع مرات لتعلم أن دينك رحمة، وأن حياتك لا تستقيم إلا بالرحمة، لولا رحمته سبقت غضبه لعذبنا جميعًا.

وقد أذن الله لرسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن تكرر في كل ركعات الصلوات، وإلا فالأصل أن المصلي مشروع له أن ينوع في القرآن، بمعنى ألا يعتاد قراءة سور بعينها حتى لا يقرأ بسهو أو يذهب خشوعه.

إنها نور، ونزلت خاصة بالنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ دون سائر الأنبياء، ونزل بالبشارة بها مَلَك، ووُعد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بإعطاء

ما احتوى عليه معناها من فضائل وخصائص له ولأمته[1].

ومن أسرارها أنه لا تصح الصلاة إلا بها للتسهيل على العباد، ويكفي في شرفها أنه لا يكاد يوجد مسلم في الدنيا إلا ويحفظها، حتى إن الإنسان أول ما يدخل في الإسلام وينطق بالشهادتين يحفظ سورة الفاتحة قبل غيرها؛ حتى تصح بها صلاته، ولو أن الإنسان اقتصر عليها في الصلاة لصحت صلاته، فما زاد عنها فهو نفل مستحب وليس بواجب.

السورة تفتتح ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ ثم تكرر ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ في الآية الثانية، اذ أن الرحمة بارزة في أسماء الله الحسنى، فأول ما يتعرف به الإنسان إلى ربه أن يتعرف إليه برحمته وإحسانه، فيحبه قبل الرجاء والخوف، ثم إن الحب مع الرجاء يتفوق على شعور الخوف.

فيها المقاصد الإجمالية الثلاثة في القرآن؛ العقيدة والعبادة والأخلاق، فهي اشتملت على الدين كله، فالقرآن يدعو أولًا للعقيدة الصحيحة، أي أن تؤمن بالله تعالى إيمانًا صحيحًا

(١) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب: فضل فاتحة الكتاب (رقم ٨٠٦).

على أسس سليمة. وهو ثانيًا يدعو للعبادة الصحيحة وإقامة الشعائر، وفي نفس الوقت هو منهج للأخلاق وللحياة شامل ومتكامل.

والقرآن كله بعد سورة الفاتحة إما أن يكون مبيّنًا للعقائد، مفسِّرًا معنى ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ ومعنى ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ ومعنى ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ أو مبيِّنًا كيف نعبد الله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ أو يخبر عن المناهج في الأرض وطرق الظالمين والهالكين وطرق الناجين، فنجد آيات كثيرة تشرح معنى ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾.

في قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ معرفة الله بإثبات التوحيد وإثبات الرسالة، وإظهار نعم الله بمحبة الخالق لخلقه والخلق لخالقهم، فتتذكر رحمة الله بعباده التي شملت الدنيا والآخرة، فتطلب منه الرحمة وتخشع في صلاتك.

في سورة الفاتحة معرفةُ الإنسان ربه ومعرفة نفسه؛ فإنه إذا كان هناك ربٌّ فلا بد من مربوب، وإذا كان هنا راحمٌ فلا بد من

مرحوم، وإذا كان هناك مالكٌ فلا بد من مملوك، وإذا كان هناك عبد فلا بد من معبودٍ، وإذا كان هناك هادٍ فلا بد من مَهديٍّ،وإذا كان هنـاك مُنعِم فلا بد من مُنعَم عليه، وإذا كان هناك مغضوب عليه فلا بد من غاضبٍ، وإذا كان هناك ضالٌّ فلا بد من مُضِلٍّ.

فيها أصل أسـماء الله الحسنى، مع التركيز على أسماء الله (الرب، الرحمن، الرحيم) فأصل علاقة ربنا عَزَّوَجَلَّ بالبشـر هي الرحمة، ولذلك ورد قولـه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ مرتين، وفي ذكر هذه الأسماء بعد الحمد وإيقاع الحمد على مضمونها يدل علـى أنه تعالـى محمود في إلاهيته وربوبيتـه وفي رحمانيته وفي ملكـه، ولأنه إله محمود ورب محمود ورحمن محمود وملك محمود، فله بذلك جميع أقسام الكمال.

فيها ذكر يوم الدين بأهمية الاسـتعداد للحياة الآخرة، من الزجر والخوف مـن النار، وجزاء الكافرين، ومشـاهد القيامة في القـرآن، فتذكر يوم القيامة وأهواله، وتسـأل ربك أن يخفف عنك تعب ذلك اليوم، فتخشع في صلاتك.

فيها إرشـاد الخلق إلى حمـد الله والثناء عليـه وتمجيده، وعبادته، والاسـتعانة به في جميـع أمورهم الدينيـة والدنيوية،

وإخلاص العمل لله، وإعلان البراءة من حولهم وقوتهم، وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم المؤدي بسالكه إلى سعادة الدارين.

فيها ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ لخصت لك الإخلاص وآيات المجاهدة والأوامر والنواهي، حيث تشعر عند كلمة (إِيَّاكَ) أن الإخلاص يتجدد في قلبك كل يوم، وأنه لا معبود إلا الله ولا معين إلا الله، فتخشع في صلاتك.

فيها تقديم العبادة على الاستعانة، لأننا ياربنا نعبدك لا على غرض أنفسنا (مرادك من الله بالاستعانة) بل على مراد الله منك (بالعبادة) عندما تؤثر مراد الله على مراد نفسك هنا تحقق غاية وجودك.

فيها ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ هي الشريعة كلها، فتشمل جميع آيات الدعوة إلى الاستقامة، والأحكام الشرعيه الموصلة للجنة، والأعمال الصالحة الموصلة لها، مع طلب الصحبة الصالحة، فتشعر أنه ليس لك من يهديك إلى الاستقامة في الدنيا ويثبتك عليها إلا الله تعالى، وليس لك من يهديك إلى صراط الآخرة ويثبت قدمك عليه لتجتازه إلا الله

تعالى، فيزيد قربك منه ورجاؤك لرحمته وخوفك من عذابه فتخشع في صلاتك.

فيها إثبات الرسل والرسالات والوحي، إذ كيف يحمده العباد، وكيف يعبدونه وَفق ما شرع، وكيف لهم بمعرفة طريق المنعم عليهم والحذر من أهل الضلال والزيغ، إلا عن طريق الرسل والكتب، وكيف يجازون على ذلك إلا بعد البيان وإقامة الحجة.

فيها ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ والإخبار عما كان للسابقين، وقصص أهل الحق في القرآن من النبيين وأتباعهم، فيستشرف قلبك منازلهم وصحبتهم وتطلب القدوة بهم.

فيها ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ ملخص لقصص ومآلات أهل الزيغ والكفر والشرك والضلال، فتستشعر طلب السلامة وحسن الختام.

تعلمك الفاتحة أن تداوم وتستمر في مجاهدتك وعبادتك لتحصل على الثمرة (أدومها وإن قل) وتركز في باب من أبواب العبادة، وتدعو ربك أن تستمر في السير على هذا الطريق وتثبت عليه حتى تلقاه.

تعلمك الفاتحة روح المبادرة، بادر بالعبادة قبل طلب الاستعانة والهداية ﴿إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ﴾ [سورة الكهف: آية ١٤] ثم جاءت ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [سورة الكهف: آية ١٤] أقبل أنت أولًا، ابدأ أنت أولًا، وعندما تخطو في الطريق تجد الهداية والفتح.

تعلمك الفاتحة مجاهدة نفسك بقدر معرفة الله وحبه ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ وبقدر الافتقار والتفويض إلى الله وتمجيده ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ وبقدر حال القلب والإخلاص والعبادة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

تعلمك السورة كيف تدعو بأن تثني وتعترف بالفضل ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ وتطلب العون مفتقرًا إليه وإلى ما عنده، ثم يأتي الدور لطرح مسألتك بدعاء الله بالهداية ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ وقد وضعت قبلُ أسباب الإجابة.

الفاتحة فيها الإقرار والاعتراف لله تعالى بالكمال من جميع الوجوه، وبالفضل والإنعام والإحسان محبة وتعظيمًا،

والإقرار من العبد على نفسه بفقره وضعفه وحاجته إلى ربه في أمـور دينه ودنيـاه ذلًّا وافتقارًا، وهذا من أجـل أنواع العبادة لله وأفضلها.

الفاتحـة تدعو إلى تحقيق كمال العبودية لله تعالى، فيتقدم بين يدي ربه بالحمـد والثناء والتمجيد، ثم يتوجه إليه بالإقرار بالعبوديـة له وحده سـائلًا إيـاه المعونه عليهـا، ولما كان لابد في العبوديـة من إخلاص لله تعالى، وموافقة لشـرعه ليقوم بها، ومن اسـتعانة ليقوى عليها، توجه إلى دعاء وسـؤال الله تعالى الهداية إلى الصراط المسـتقيم، فهو سبيل النجاة والفوز برضا الله وجنتـه، فهو صراط أهل النعمة المطلقـة، وأن يجنبه طرق أهل الزيغ والضلال واتباع الهوى.

الفاتحـة تضمنت أنواع التوحيد الثلاثة؛ فتوحيد الأسـماء والصفـات دل على ذلك قولـه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ فإثبات الحمد الكامـل لـه يقتضي ثبوت كل ما يحمد عليـه من صفات كماله ونعوت جلاله، التي أثبتها لنفسه وأثبتها له رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مـن غيـر تعطيـل ولا تمثيل ولا تشـبيه، وأمـا توحيـد الربوبية فيؤخذ من قوله: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾ فهو المتفرد بالخلق

والتدبير والنعم، وأما توحيد الإلوهية؛ إفراد الله بالعبادة، ففي قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ فلا نعبد إلا إياك حبًّا وخوفًا ورجاء وطاعة تعظيمًا، ولا نستعين إلا بك توكلًا وثقة واعتمادًا، ويسمى أيضًا توحيد العبادة.

سورة الفاتحة أولها رحمة، وأوسطها هداية، وآخرها نعمة، والنعمة الحقيقية تكون بالرحمة والهداية، ونقل عن شيخ الإسلام ابن تيمية أنه كان إذا صلى الفجر مكث في مجلسه يقرأ الفاتحة ويرددها حتى طلوع الشمس أو ارتفاع النهار، فهي أساس الذكر، وتأملها يبعث على تحقيق الدين كله الذي يريده الله.

فيها من الأسرار والعلوم والهداية والخير ما لا حد له، والسورة تطلق على المنزلة العظيمة العالية، كسور تحيط بجمال معانيها، بما يعني أنك لتجتاز السور يجب أن يفتح لك، لذا وجب تكرارها مرات عديده في اليوم والليلة، كمن يطرق الباب؛ هل يكتفي بمرة واحدة!

بدأت الفاتحة بالتعريف بالله عَزَّوَجَلَّ بنعمته وبرحمته وبملكه وبمجده، وأعطت أربع مفاتيح لفتوح وسعادة الدارين: مفتاح

الذكر والثناء والأذكار الموظفة والاستغفار الدائم في ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾ ومفتاح التبتل والعبادة ومحبة فضائل الأعمال في ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ ومفتاح التوسل والدعاء في ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾ ومفتاح علو الهمة في طلب الحق في ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾.

فيها تعليم العباد بالتوجه إلى بارئهم بتقديم الوسائل التي شرعها لهم ربهم، والتقرب إليه بخالص النيات لتثبيتهم على شرائع الإسلام، بالتمسك بالعروة الوثقى وحبل الله المتين، الذي تمسك به عباده المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، والذي طرفه من عند الله وطرفه الآخر في جنات النعيم.

فيها أطيب وأشرف الذكر بحمد الله وشكره والثناء عليه وتمجيده بأسمائه وصفاته، فإن أعظم ما تقرب به الإنسان إلى ربه سبحانه هو ذكره والثناء عليه متذكرًا معانيها بقلبه، فقد أدى أفضل الأعمال، فذكر الله خير من سائر الأعمال، خير من الصدقة والجهاد، فما طلب الله الاستكثار من شي مثله وما جاءت (كثيرًا) في القرآن إلا مع الذكر.

فيهـا أجل المطالـب العاليـة في التعبد القلبـي: فالمطلب الأول هـو كمال محبة الرب، والمطلب الثاني هو كمال الرغبة والرجاء بالرحمـة، والمطلب الثالث كمـال الرهبة والخوف. واشـتملت علـى أصـول تحصيـل الهدايـة، بالحمـد والثنـاء والتمجيد، والعبودية، والذل والخضوع والاستعانة، والدعاء، ثم جاء بعدها طلب الهداية والتوفيق إلى الصراط المستقيم.

اشـتملت الفاتحه على الرحمة، وهـي الكلمة الأولى، ثم جاء تعالى بأخص أنواعها، وهي الهداية، ثم جاء بأخص أنواع الهدايـة، وهـي النعمة، فلا يمكن أن يهتـدي حتى يرحمه الله، ولا يمكن أن ينعم عليه حتى يهديه الله.

اشـتملت على التعليـم والتعريـف بالمعبود ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ مقدمـة حتـى تعـرف الله، فـإذا عرفت فاعبده ثم خذ العون من الله، فإن الله لو لم يعنك لما اسـتطعت أن تعبـده «لَنْ تُطَاعَ إِلَّا بِإِذْنِـكَ»[1] «وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ»[2] فإن لم يوفقه ولم يعنه فما أذن الله له.

(١) جـزء مـن حديـث طويل أخرجـه الطبراني في المعجـم الكبيـر (٨/ ٢٦٤ رقم ٨٠٢٧).

(٢) جزء من حديث أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات (رقم ٣٤٠١)

أراد الله منا أن نجعل قراءتها ديدننا في ليلنا ونهارنا، ندعوه ونتوسل إليه بفهم وحضور قلب لمعانيها، لتكون معنا في كل أحوالنا وأوقاتنا، لكي تحدث تغيير في حياتنا. جمعتْ معاني الوحي ومقاصد الشرع، فمن تدبَّرها حقَّ التدبُّر فتحتْ له جميع مراتب الهداية، كلٌّ على حسب إيمانه.

تدبر سورة الفاتحة يوصل لمرتبة الإحسان، حيث إن أول طريق لإحسان العبادة هو أن يجمع المرء قلبه حال قراءة الفاتحة.

إذا تأملت وجدت أول السورة افتتحت بأمور ثلاثة: بذكر الإلهية، والربوبية، والملك، وهذه الأمور الثلاثة موجودة في آخر سورة في القرآن ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ الربوبية ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾ الملك ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ الألوهية، فهذه ثلاثة أوصاف لربِّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ذكَرَها مجموعةً في موضعٍ واحدٍ في أول القرآن، ثم ذكَرَها مجموعةً في موضعٍ واحدٍ في آخر ما يَطرُق سمعك من القرآن؛ فينبغي أن يُعلم أنَّ العليم الخبير لم يجمَعْ بينهما في أول القرآن ثم في آخره إلَّا لِمَا يَعلَمُ مِن شدَّةِ حاجة العباد إلى مَعرفتِها.

بربوبيـة العالميـن يطمئـن قلـب المؤمن إلى هـذا الرب المعبود، وتسـكن نفسـه إليـه، وتنقاد إليـه بكليتـه، فربه الذي يعبده هو رب العالمين، فمن يخرج من ربوبيته وقهره وتسلطه! وهـو أيضًا مالك ليوم الديـن، يملك ذلك اليوم الذي فيه الكل خاضـع، فهو يملك الدنيا والآخرة، وهو رحمن رحيم، نتقلب في ألطافـه، ونُقبل عليه، ونسـأله رحمته، ونتوجـه إليه بكُليتنا، وتتعلق قلوبنا به دون ما سـواه، فهو رحيـم بنا، وهو ربنا، وهو مالكنـا، إلى مـن نتوجه إن لـم نتوجه إليـه تَبَارَكَ وَتَعَالَى فهو الذي خلقنا وأوجدنا، وهو الذي هدانا، وهو الذي أخبرنا أنه رحمن رحيم.

الكلمـة التي تـدور حولها الفاتحة هـي ﴿ٱهۡدِنَا﴾ فالأمة كلها حين تصلـي تطلب وتدعو بالهداية، فـكأن كل المصلين يدعون لبعضهم وقد توسـلوا إلى الله تعالى بأنواع التوحيد من أجل طلب الهداية.

نلاحـظ أن كلمة ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ قد تكررت مرتين في السـورة، في قوله تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ وفي قوله تعالـى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ وهذا يشـعرنا برحمـة ربنا التي

شملت الدنيا والآخرة، فلفظ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ الأول جاء بعد ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾ فالعالمين والدنيا كلها تسير برحمة ربنا عَزَّوَجَلَّ و﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣﴾ جاء بعدها ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾ للإشارة أن اليوم الآخر أيضًا يسير برحمة الله، فهذه السورة تطمئن المرء بأن الأصل في الكون هو رحمة الله، وأن أصل علاقة الله بعباده هي الرحمة.

في السورة التي تليها (البقرة) أولها ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾ ووصفهم بأوصافهم، ثم كرر أنهم ﴿عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ وكأن فيها إجابة لسؤال الداعي بطلب الهداية ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ في الفاتحة أن وُصفت له أوصاف المهتدين في أوائل سورة البقرة ثم أن الصنف الثاني ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يقابلهم في سورة الفاتحة ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ والصنف الثالث هم المنافقون ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ لأنهم عرفوا الحق ويتنكبون الصراط المستقيم.

ولأن جوهر الدين عبودية واستعانة، فلا يكتمل لك دينك إلا إذا كملتهما، فمقامك عند الله بقدر افتقارك إليه ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾ مقدمة للاعتراف بين يدي الله بالافتقار

وسؤال الهداية «وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»[1] ماذا تريد يا عبدي؟ يلقنه أن يدعو بطلب الهداية ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾.

ولما كان أَوَّلُ الفاتحه مشتملًا على حمد الله وتمجيده والثناء عليه، وآخرُها مشتملًا على الذمِّ للمعرضين عن الإيمان به والإقرار بطاعته، دلَّ ذلك على أنَّ مَطلع الخيرات وعُنوان السعادات هو الإقبالُ على الله عَزَّوَجَلَّ ومطلعَ الآفات ورأس المخالفات هو الإعراضُ عنه سبحانه والبعدُ عن طاعته.

من تحقق معاني الفاتحة علمًا ومعرفة وعملًا وحالًا وواقعًا فقد فاز بالكمال البشري بأوفر نصيب، وصارت عبوديته عبودية الخاصة الذين ارتفعت درجتهم عن عوام المتعبدين.

هي سورة تشمل معاني الكمال الإلهي، ويستحضر حمد ربه تعالى وكمال فضله ونعمته بهذا القرآن العظيم، ويتعرف على أسماء الله وأوصافه الدالة على كماله وجلاله، فيزداد معرفة بربه ومحبة وقربًا، ثم هو يعترف لربه بحق العبودية، فيشتاق أن يرتقي في شرف مدارجها ويستشرف مراتب

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (رقم ٣٩٥).

المقربين، وهو في هذا يطلب العون من ربه استحضارًا لضعفه وتقصيره، وحاجته لربه في كل أحواله، خاصة لتحقيق عبوديته كما يحب ويرضى.

اشتملت على المطالب العالية في أصول العبادات القلبية الثلاثة، فلا توجد عبادة إلا على المطالب الثلاثة: محبة الرب ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ باعتقادك أن الله رب العالمين، هذا مفتاح كمال المحبة، لأن النفوس جبلت على من أحسن إليها، ولا أحد أحسن إلى البشر أكثر من ربها عَزَّوَجَلَّ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [سورة البقرة: آية ٢١] الثاني كمال الرغبة والرجاء فيما عنده، والثالث كمال الرهبة.

ولأنه سبحانه يعلم ضعفك، ويعلم شدة حاجتك في دنياك، أمرك بالصلاة كقناة تواصل معه، وعلمك كيف يكون الحوار بالفاتحة، فالبداية حمد وثناء وتمجيد، ثم إقرار وإعلان وتحقيق عبوديتك له واستعانتك به، ثم يأتي السؤال وطلب الهداية والتوفيق إلى الجنة، وقد وعدك الإجابة متى كنت حاضر القلب مخلص القصد منكسر القلب خاشعًا مخبتًا.

والمراد بالصلاة في قوله عَزَّوَجَلَّ في الحديث القدسي: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ»[1] هي الفاتحة، فهي الركن الركين في الصلاة ولا تصح إلا بها، فهي جوهر الصلاة ولبها، وهي قسمان: قسم لله عَزَّوَجَلَّ وقسم للعبد، ثلاث آيات ونصف خالصة لله، وثلاث آيات ونصف خالصة للعبد، نصف يقرأ في الأرض ونصف يقرأ من فوق سبع سموات، استشعر.

لقد تناولت سورة الفاتحة أربعة محاور رئيسة:

١) المحور العقدي:

الاعتقاد بالله واختصاصه جل شأنه باستغراق الثناء والحمد، كجزء من التعريف به جلت عظمته، واعتقاد أنه المنعم المجازي الذي إليه المرجع والمعاد، فلا شريك له ولا نظير للمستحق للعبادة، وتجسد هذا المحور في قوله تعالى ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ فهو سبحانه مصدر كل أمر يستوجب الحمد، فهو الخالق المبدئ المعيد المربي بكل الآلاء والنعم.

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (رقم ٣٩٥).

■ ٢) المحور العبادي:

لقد دعت السورة الكريمة إلى توجيه العباد بعبادتهم إلى الله وحده عَزَّوَجَلَّ وأنه لا مألوه بحق سواه، فكان ذلك اجتثاثًا لجذور الشرك والوثنية التي كانت قد ضربت أطنابها في أرجاء المعمورة، وإرساء لتوحيد الألوهية الذي يعد أهم ما جاء من أجله الدين، ،وهذا المحور يتمثل في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

■ ٣) المحور المنهجي:

وهو الذي بينت السورة من خلاله سبيل السعادة الذي هو منهج النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، من استمسك به حاز نعم الدنيا والآخرة، ومن زاغ عنه باء بالخسران فيهما، وتمثل هذا المحور في قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾.

■ ٤) المحور الاعتباري أو القصصي:

وعن طريقه أوضحت السورة الكريمة مآل الموحدين الواقفين عند حدود الله تعالى الآخذين بأحكام شرعه، وعاقبة المشركين المتعدِّين لحدود الله تعالى النابذين لأحكام دينه،

وجاء هذا المحور ملخصًا في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم غَيرِ ٱلمَغضُوبِ عَلَيهِم وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

إن سعادة الإنسان التامة تتوقف على استكمال قوتيه العلمية والعملية الإرادية، واستكمال القوة العلمية إنما يكون بمعرفة فاطره وبارئه، ومعرفة أسمائه وصفاته، ومعرفة الطريق التي توصل إليه، ومعرفة آفاتها، ومعرفة نفسه ومعرفة عيوبها. واستكمال القوة العملية الإرادية لا يحصل إلا بمراعاة حقوقه سبحانه على العبد، والقيام بها إخلاصًا وصدقًا ونصحًا وإحسانًا ومتابعة، وشهودًا لمنّته عليه وتقصيره هو في أداء حقّه.

إن استكمال هاتين القوتين لا يكون إلا بمعونته، فهو يهديه إلى الصراط المستقيم الذي هدى إليه أولياءه وخاصّته، وأن يجنّبه الخروج عن ذلك الصراط، اما بفساد في قوته العلمية فيقع في الضلال، واما بفساد في قوّته العملية فيوجب له الغضب.

قوله تعالى: ﴿ٱلحَمدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَومِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ يتضمّن الأصل الأوّل، وهو معرفة الرب تعالى ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله.

وقولـه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ يتضمّن معرفة الطريق الموصلة اليه، وأنها ليسـت إلا عبادتـه وحده بما يحبّه ويرضاه، واستعانته على عبادته.

وقولـه: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ يتضمّن بيان أن العبد لا سبيل له إلى سعادته إلا باستقامته على الصراط المستقيم، وأنه لا سبيل له إلى الاستقامة على الصراط إلا بهداية الله تعالى له.

وقولـه: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧﴾ يتضمّن بيان طرفي الانحـراف عن الصراط المسـتقيم، وأن الانحراف إلـى أحد الطرفيـن انحراف إلى الضلال الذي هو فسـاد العلم والاعتقاد، والانحراف إلى الطرف الآخر انحراف إلى الغضب الذي سببه فساد القصد والعمل.

فأوّل السـورة رحمـة، وأوسـطها هداية، وآخرهـا نعمة، وحـظ العبد من النعمة على قـدر حظّه من الهداية، وحظّه منها على قدر حظّه من الرحمة، فعاد الأمر كلّه إلى نعمته ورحمته. والنعمـة والرحمـة مـن لـوازم ربوبيّته، فـلا يكـون إلا رحيمًا منعمًا، وذلك من موجبات ألوهيّته، فهو الإله الحق وإن جحده الجاحدون وعدل به المشـركون. فمن تحقّـق بمعاني الفاتحة

علمًـا ومعرفة وعمـلًا وحالًا فقد فاز من كمالـه بأوفر نصيب، وصـارت عبوديّته عبوديّة الخاصّة الذين ارتفعت درجتهم عن عوام المتعبّدين، والله المستعان.

❊❊❊

القسم الأول

الثناء والتوسل

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١﴾.

أبتديء مستعينًا بالله

الله هو جامعٌ لمعاني أسماء الله الحسنى كلها، دال عليها بالاجمال، ومُتضمِّن لكمال الجلال والجمال، الدال على الألوهية، وهي العبادة مع غاية المحبة والتعظيم والخضوع.

الله الذي تألهه القلوب تعظيمًا وخضوعًا، وتحن إليه بالمحبة والشوق والحنين إلى رؤيته، وتأنس بذكره، وتفزع إليه في الحوائج والنوائب «وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ»[1].

الله هو الذي تحار فيه العقول فلا تحيط به علمًا ولا تدرك له من الكنه والحقيقة إلا ما بيّن سبحانه في كتابه، وهي قد تحار في بعض مخلوقاته فكيف بذاته عَزَّوَجَلَّ فالعقل يرتد حسيرًا كسيرًا عن إدراك ذات الله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ١١٠﴾ [سورة طه: آية ١١٠].

(١) أخرجه النسائي في كتاب السهو (رقم ١٣٠٥).

الله هـو الإله المعبود المسـتحق للعبادة دون سـواه ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾ [سـورة مريم: آية ٦٥] فالعقل والفكْر يحتاران في حقائـق صفاتـه وفي عجيب مخلوقاته، والقلوب لا تسـكن إلا بذِكْـره، وليس للعبـاد ملجأ يفزعون في النوائـب إلا إليه، وهو سبحانه مَن ارتفع بذاته مستويًا على عرْشه، فهو وحدَه سبحانه المستحق للتألُّه والتعبُّد والتنسُّك.

الله هو الاسـم الذي يتضمـن توحيد الله بأفعـال العبد من الأعمـال القلبيـة، مـن الخشـية والتـوكل، والأفعـال الظاهرة كالصلاة والذبح والصدقة وغيرها.

الله هو الاسم المستلزم لكمال ربوبيته ورحمته، المتضمن بأن له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

لـو تفكَّر قلبُ العبـد في هذه المعاني الجليلة لاسـم (الله) لأوجبتْ له السـكون إلى مولاه واللجـوء إليه، ووقوف العقل عن التفكير في ذاته إلى تدبُّر أسـمائه وصفاته، والنظر في عظيم مخلوقاته.

تكاد القلوب المؤمنة أن تتفطر من فرط محبَّتها له وتعلُّقها بـه؛ ممـا يثمر أُنس هـذه القلوب بـه وحدَه لا بسـواه، فلا يفتر

الجسد عن خِدْمته، ولا يسْأَم اللسان عن ذِكره، ويُوجِب خضوعَ العبد لمولاه والذل والانقياد على التمام، وتقديم رضاه على كلِّ ما سواه.

كيف يُحصى جلال هذا الاسم الجليل العظيم، الذي له من كل كمال أكمله وأعلاه وأوسعه وأعظمه، فما ذكر هذا الاسم في قليل إلا كثره، ولا عند خوف إلا أزاله، ولا عند كرب إلا كشفه، ولا عند هم إلا فرّجه، ولا عند ضيق إلا وسعه، ولا تعلق به ضعيف إلا قواه، ولا ذليل إلا أعزه، ولا فقير إلا أغناه، به تستنزل البركات، وتجاب الدعوات، وترفع الدرجات، وتستجلب الحسنات، وتستدفع السيئات، فلا أعظم من جلال (الله) تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

عندما يعلم المؤمن بأن الله تعالى متصف بهذا الاسم العظيم ينبغي له أن يقوم بحقه، من التعبد الذي هو كمال الحب مع كمال الذل والتعظيم، فلا شيء أطيب للعبد ولا ألذ ولا أهنأ ولا أنعم لعيشه ولقلبه من محبته تعالى، ودوام ذكره في لسانه وقلبه، والسعي إلى مرضاته، والخشوع والخضوع له ظاهرًا وباطنًا.

الرحمـن ذو الرحمـة الواسـعة بجميع الخلق، وهو اسـم مشـتق من صفـة الرحمة القائمة به سـبحانه، وهـو متصف بها في نفسـه، والرحيـم ذو الرحمة الواصلة، فهو سـبحانه موصل الرحمة إلى خلقـه، وهي للمؤمنون خاصة، فالرحمن وصف، والرحيـم فعـل، حيث وسـعت رحمته الأشـياء وشـملت كل الأحياء، فكل ما هم فيه من نعم فمن آثار رحمته.

الله والرحمن: تستشـعر عظمة الله تعالى وتستقر في نفسك سـعة رحمة الله تعالى بأن قرن اسـمه بنعمة الرحمة الواسـعة، فتفاءلْ واطمئن، وأحسـن الظن بربك في عسـرك بأن يفرج الله عنك، وفي يسرك بأن يديم عليك رحمته ونعمته.

الرحمـن: الرحمـة الواسـعة ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [سـورة الأعـراف: آيـة ١٥٦] فتـدل علـى الامتلاء بالصفة، لكن لا تدل على ديمومتها، (نعسـان فإذا نام ذهب نعاسـه) فرحمة الله بأهـل الدنيا من جنـس المخلوقات جميعها تزول عنهم بقيام الساعة، لأن يوم القيامة غضب عام.

الرحيـم ذو الرحمة الواصلة إلى عبـاده، وهي فعله تعالى الذي يفعله متى شاء، ومن وصلت له الرحمة استمرت معه في

الدنيا والآخرة ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾[سورة الأحزاب: آية ٤٣] ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾[سورة الطور: آية ٢٨] ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [سورة يس: آية ٥٨] وهي تدل على الديمومة حتى في الآخرة ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾[سورة الأنبياء: آية ١٠٣] ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾[سورة فصلت: آية ٣٢].

والبدء بالبسملة فيه طلب العون من الله وحده رجاء البركة منه، ودلالة على كمال ألوهية الله عَزَّوَجَلَّ باتصافة بالرحمة، ولذا يبدأ المسلم بها في كل شئون حياته استعانة وتوكلًا.

الباء للمصاحبة والاستعانة، أي أستصحب جلال أسماء الله طيلة الحياة، فجلال أسمائك في قلبي، وهي استعانة بالله أن يفتح قلبك لفهم أسرار السورة، واستعانة بالله أن يفتح لك أنوارها المليئة بالرحمات لتملاء قلبك بالإيمان واليقين فلا تخرج إلا بكنوزها.

وإذا أقبلت لتتفاعل مع أي شيء في الكون فإنك تبدأ باسم الله الذي سخر لك هذا الشيء، لأنك لا سيطرة لك على جنس من أجناس الكون لينفعل لك أو ليخدمك بقدرتك، فلا قدرة لك ولا علم لك، فأنت حين تقبل عليه تتذكر هبة الله لك،

وتذكر اسمه على كل فعل تقوم به، تذكر نعمة الله عليك في التسخير، فذكرك لاسمه قد ضمن لك ثواب تذكرك لنعمة الله.

بسم الله كذلك ترفع الحياء عن العاصي لله حين يباشر عملًا، فلا تمنعك معصيتك له أن تبدأ كل عمل باسمه، فقد جاء بالحيثية، فهو رحمن رحيم، أي أن تعيش حياتك بتجليات الرحمة، وحين تبدأ بقولك (بسم الله الرحمن الرحيم) عملًا لغاية ونتيجة، فإذا أثمرت الغاية كان مناسبًا أن تستقبل هذه النتيجه بقولك: الحمد لله.

الله والرحمن هما أعمدة أسماء الله الحسنى ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ﴾ [سورة الإسراء: آية ١١٠] فأسماء الجلال ترجع إلى الله مما يثير كمال الخوف، وأسماء الجمال ترجع إلى الرحمن مما يثير كمال الرجاء، و«**رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي**»(١) فأسماء الله لا تخرج عن الجلال والجمال ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ [سورة السجدة: آية ١٦] أي بأسمائه.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [سورة الأعراف: آية ١٥٦] (رقم ٧٤٢٢) ومسلم في كتاب التوبة، باب: في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (رقم ٢٧٥١).

فجميع أسماء الله تعالى منطوية في ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾﴾ فمن قالها فقد ذكر الله بجميع أسمائه، فالرحمن من صفة الرحمة، وهي تقتضي الرجاء، ولفظ الجلالة (الله) من صفة الألوهية، وهي تقتضي الخوف.

فعندما نبدأ بالبسمله يتبين لنا أن جميع أعمالنا وتصرفاتنا ينبغي أن تبنى على أساسين اثنين؛ خوف منه وطمع فيما عنده، وكلا الأساسين لا يوجدان إلا بعد معرفة به وكمال محبته في القلب، فمن عرف الله بأسمائه وصفاته تعلق قلبه به محبة وخوفًا ورجاء، والتأله هو كمال الحب والشوق والأنس.

وكلما زاد الحب في الخالق زاد الخوف منه وزاد الرجاء فيه، لأن المحبوب إن أعرض خاف المحب من إعراضه، وإن أقبل طمع المحب في إقباله ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [سورة البقرة: آية ١٦٥].

ورحمة الله تعالى لخلقه نوعان: رحمة لجميع الخلق المؤمنين والكافرين وسائر المخلوقات فرحمته وسعت كل شيء، والثاني رحمة خاصة بالمؤمنين، وهي الأعلى والأغلى؛ إذ بها يكتمل نور الإيمان ويتدرج بها العبد في منازل الجنان.

وقد بدأت بالبسملة هنا، وهي ليست من الفاتحة على الصحيح، لأن المصلي يشرع له قراءتها، ولكونها آية مستقلة من القرآن الكريم، ولأن هذا أول ورود لها في المصحف.

❊❊❊

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾.

«حَمِدَنِي عَبْدِي»[1].

هذه هي روعة الاستهلال، وحسن الثناء على خالق الكون ومدبر أمره، الذي خلق ورزق، ولطف بعموم رحمته وعميم فضله، وإليه يمضي الخلائق للحساب جزاء وفاقًا. وحقيقة الحمد الثناء عليه سبحانه بِذِكْر نعوته الجليلة وأفعاله الجميلة، المثمر لحبِّ القلب وخضوعه.

الحمد لله لظهور سلطانه ولاستحقاقه لجلاله وجماله، وله الشكر لوفور إحسانه ولجزيل نواله وعزيز أفضاله، فحمده سبحانه لنفسه العلية هو مِن صفات كماله، وحمد الخَلْق له

(١) جزء من حديث «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين» الذي أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (رقم ٣٩٥).

هو على إنعامه وعلى جلاله وجمال استحقاقه لصفات العلو، واستيجابه لنعوت العزِّ والسمو.

وهذا الاستهلال فيه قطع بأنه لابد من أن يوجد حمد في هذا الكون بشكل فطري لتستقبل بها البشريه سيل النعم التي تفيض على الخلائق، وما ينفعل لهم من اسباب مادية وحيوان ونبات سخرت لهم ولمنفعتهم ولمعيشتهم.

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ (ال) تدل على الاستغراق بأن هذا الحمد موجه بشكل حصري مستغرق لله عَزَّوَجَلَّ بكل أنواع المحامد، ما علمنا منها وما لم نعلم، له وحده لا شريك له، ويصح أن تضع مكانها (كل).

واللام في (لله) هنا تدل على الاستحقاق لجميع أوجه الحمد وأنواعه، ولا يستحقها على هذا الوجه العظيم الخالص الشامل إلا الله، وكل ماجاء بعد الحمد فهي حيثيات له، فهو الله، وهو رب العالمين، وهو الرحمن، وهو الرحيم، وهو مالك يوم الدين، فهو مستحق الحمد وأهله لما له من جلال وجمال وكمال سبحانه وبحمده.

الحمد هو الثناء التام بالجميل والوصف الجامع بالكمال المطلق، وهو الاعتراف لله بالتقصير والفقر والحاجة إليه، وشكره على نعمته وإحسانه إلى عباده.

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ **استحقاقًا واختصاصًا، فهو تعالى مستحق لكل أجناس المحامد،** وكل أنواع الثناء الكامل من جميع الوجوه لذاته، ولربوبيته الكاملة على خلقه، ولأسمائه وصفاته وأفعاله، وعلى خلقه ونعمه وهدايته وقضائه وقدره.

ابتداء الله تعالى السورة بحمد نفسه يعلمنا أنه لن يبلغ كمال حمده تعالى ولا يحصى ثناء عليه إلا هو تعالى ليربي عباده على كيفية حمده «**لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ**»(١).

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ **هو الشعور** الذي يُستقبل بالفكر ويستقر في الوجدان ويفيض به قلب المؤمن، ثم يشع في كل جوارحه فتنزع فعلًا وشكرًا، فالنعمة لكل كيانك ﴿تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣﴾ [سورة الزمر: آية ٢٣] ثم

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود (رقم ٤٨٦).

تتسع الدائرة إلى خارجك، فتكون حركة الحياة منسجمة بما استقر في عقيدتك، فلا يصدر منك شيء إلا بمنهج الله الذي أقره.

الله هو المستحق للحمد بذاته لأنه (الله) لفضائله وكمالاته، وبأفعاله الدائرة بين الفضل والعدل، وإن لم تتعد الفضائل إليك فذاته عَزَّوَجَلَّ تستحق الحمد قبل خلقه للخلق ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[سورة البقرة: آية ١١٧] يستحق أن يلتفت إليه خلقه بالإعجاب والثناء والتسبيح والتحميد؛ لأنه أبدع شيئًا على غير مثال، فكيف إذا نالك من هذه الذات الإلهيه شيء بسيال الربوبية من النعم التي سبقت وجودك، والنعم الحالية التي أنت فيها، أو التي تنتظرك بالرحمة في الآخرة ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا﴾[سورة الأعراف: آية ٤٣].

هو ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فإياك أن يخطر ببالك أن عالمًا من العوالم التي تخدمك - أيها الإنسان - سينكث عن خدمتك، فناصيتهم بيده لا رب لهم سواه ﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾[سورة المؤمنون: آية ٩١] فهي ربوبية رحمة لا جبروت.

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ **لأنه الله في كمالاته**، ولأنه رب العالمين لفيض الإحسان منه لخلقه، فإن وجودك ابتداءً قبل وجودك ﴿لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١﴾ [سورة الإنسان: آية ١] ليس إلا فيضًا من النعمة الإلهية التي تستجيش الشكر والحمد والثناء، وتفيض على الجوارح لتنفعل مع الوجود انفعال الحب والرحمة مع من حولك.

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ **هو الاعتراف بالفضل**، وهو أن تثني على الله وتجلّه، وتشكره على عطاياه، وتذكره وتمجده بجميع أسمائه، لأن من يُحمد لا يُحمد إلا على كمال، وعلى أوصاف الجمال والجلال، ويثبت لله كل أسمائه ما عرف منها وما لم يعرف.

افتتاح الكتاب العزيز بالحمد فيه دلالة على أن هذه الكلمة هي أجمع كلمة في وصف الكمال لله عَزَّوَجَلَّ وأن الحمد من أكمل أنواع الذكر، وأن أول ما يتلقاه العباد من كلام ربهم هي كلمة الحمد، فيستقر ذلك في نفوسهم، وأن السورة مبنية عليه من حيث دلالتها على كمال الله تعالى الدال على استحقاقه للعبودية، وإرشاد العباد إلى أن يبدأوا بحمد الله تعالى والثناء عليه وتمجيده في سائر أحوالهم.

﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ **هو الإخبار عن إحسان ومحاسن المحمود على وجه الحُبِّ له**، ومحاسنُه تعالى إمَّا قائمة بذاته وإمَّا ظاهرة في مخلوقاته.

﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ **هو وصفُ المحمود بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم**، فإن لم يكن مع المحبة والتعظيم كان نفاقًا ورياءً وكذبًا وتزلُّفًا ومدحًا مذمومًا. فهو الثناء التام لله عَزَّوَجَلَّ في ذاته وصفاته وأفعاله؛ لأنه خالق الخلق كلهم ومالكهم ومدبر شؤونهم ومربيهم بنعمه العامة والخاصة.

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ **هو الإخبار عنه بصفات كماله عَزَّوَجَلَّ مع محبته والرضا به**، فلا يكون المحبُّ الساكت حامدًا ولا المُثنِي بلا محبة حامدًا حتى تجتمع له المحبة والثناء.

﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ **أفضل من التسبيح**، بل يقوم مقام التسبيح لما تضمنه الحمد من معنى التسبيح، وهو تنزيه لله عَزَّوَجَلَّ وزيادة عليه، بإثبات كل كمال للرب عَزَّوَجَلَّ فعلًا ووصفًا واسمًا وتنزيهًا عن كل سوء وعيب ونقص، ولأن التسبيح تنزيه، فغالبًا يأتي مقرونًا إما بالحمد أو باسم من أسماء الله العلي العظيم «سبحان الله وبحمده» وكذلك فإن الحمد معناه الثناء على الله

والشكر له، وهذا تنزيه له واعتراف بأنه أهل لأن ينزه ويعظم ويثنى عليه،لأنه لا يكون مستحقًّا للثناء إلا إذا كان منزهًا عن النقص، فحمد الحامد لله تسبيح له.

﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ **أعمُّ المعارف وأوسع العلوم،** وهو متضمِّن لجميع صفات كماله ونعوت جلاله عَزَّوَجَلَّ مع محبته والخضوع له مستلزم لها، كما هو متضمِّن لحِكْمته في جميع أفعاله وأوامره، وهو سبحانه المحمود على كلِّ حال، وعلى كلِّ ما خلَقه وشرَعه، فمَن امتلأ قلبه بالحمد امتلأ ميزانه به يوم لقاء مولاه، قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ**»(١) فاللهم لك الحمد مِلء السماوات والأرض، وملء ما بينهما، وملء ما شئتَ من شيءٍ بعد، ولك الحمد كلُّه حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيتَ، ولك الحمد بعد الرضا.

وقد بدأ بوصف الألوهية ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ قبل تخصيص وصف عطاء الربوبية ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ مع أن الأخير أكثر تعلقًا بمصلحة العباد وأكمل في الإحسان إليهم، دليل على أن

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم في كتاب الطهارة، باب: فضل الوضوء (رقم ٢٢٣).

الألوهية تكليف، وهي في حقيقتها نعمة تستحق الحمد بمنهج تستقيم به حياته ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢﴾ [سورة الرحمن: آية ١-٢] لأنها تستوجب الجزاء في الآخرة، وهي امتداد لحياتك الحقيقية في الآخرة التي لا تفوتك النعمة ولا تفوتها أنت بالموت.

كلمة الحمد لله هي سر الكون كله ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] لو فقهت وعلمت، ففي الضراء «الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات» وفي السراء «الحمد لله على كل حال» والحمد هي في مجموعها كلمة تحمل معنى العبودية والحب والثناء والشكر والعرفان بالقلب واللسان والجوارح، ومن يوفق إلى ذلك يستشعر فضل الله عليه بالهداية إلى معرفته وتوحيده.

أصدق وأحق كلمة قالها العباد هي ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ وهي أفضل الدعاء، وهي تملأ الميزان، وهو سبحانه المستحق للحمد كله، والأولى به على أعلى صفات الكمال، وقد كان الحمد وذكر الثناء والمجد لله تعالى بعد الرفع من الركوع تأكيد وتكرار ما ورد في الفاتحة.

إن كمال الحمد يتضمن التوحيد، فهو أولى بأن يعبد؛ لأنه أولى أن يحمد، وحيث يستلزم الحمد الإقرار بكمال حكمة الله عَزَّوَجَلَّ في خلق الخلق وكمال رحمته بإرسال الرسل وإنزال الكتب، فالحمد يستلزم شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

والحمد يشمل أيضًا الثناء بالمحاسن العليا وإثبات صفات الكمال والجلال المطلق، والفضل والإحسان، والنعم الظاهرة والباطنة له تعالى، محبة وتعظيمًا، فهو الإخبار عن محاسن المحمود مع المحبة له، والمحاسن تشمل الكمال الإلهي في ذاته وصفاته وأفعاله، وأثرها في ربوبيته لخلقه وإنعامه عليهم، فهو المحمود سبحانه لألوهيته وربوبيته، وهو المحمود لرحمته، فتكرار الحمد هنا يسمى (ثناء) وهو المحمود لملكه يوم الدين، فتكرار الحمد مرة ثالثة يسمى مجدًا «**حَمِدَنِي عَبْدِي ... أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي ... مَجَّدَنِي عَبْدِي**».

إن أنواع المحامد كثيرة لا تحصى، ولو استحضرها العبد وهو يقرأ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ لفتح له أنواع وأبواب من محبة الله ومن تمجيده وتعظيمه وحسن الثناء عليه،

ولفتح له علوم وعبادات قلبية لا يعلمها إلا من عاشها وعرفها (لك الحمد بمحامدك كلها ما علمنا منها وما لم نعلم).

وهو عَزَّوَجَلَّ محمود من وجوه لا تحصى وجوانب لا تستقصى، له أسماء وأوصاف ومدائح وثناء لا يعلمها ملك مقرب ولا نبي مرسل، تقصر بلاغة الواصفين عن إدراك كنهها، لم تتحرك بها الخواطر، ولا هجست بها الضمائر، ولا لاحت لمتوسم، ولا سنحت في فكره، فهو تعالى محمود في الكون كله دائمًا بدوامه، خالدًا مع خلوده، حمدًا لا يزول أبدًا في الدنيا والآخرة.

والحمد يدور على خمسة معان:

١. أن يحمد الله على ربوبيته.
٢. وأن يحمد الله على ألوهيته.
٣. وأن يحمد على أسمائه وصفاته.
٤. وأن يحمد الله جَلَّوَعَلَا على خلقه وإبداعه الكائنات.
٥. وأن يحمد جَلَّوَعَلَا على شرعة وكتابه.

و﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ تضمنت توحيد الله بالعبادة، وهو في الحقيقة معنى العبادة، فالعبودية مدارها على قاعدتين هما أصلها: حب كامل وذل تام «**أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي**»(١).

لحظ القلب إلى النعمة ومشاهدة المنة يورث هذا شكرًا وحبًّا لولي النعم والإحسان وتعظيمًا له ورضا عنه.

مطالعة عيب النفس والتقصير في العمل والذنب التي تورث ذلًّا وانكسارًا وخضوعًا له سبحانه والافتقار والتوبة في كل وقت وألا يرى نفسه إلا مفلسًا.

﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ فيه معنى الشكر، بل هو أعم منه؛ لأنه يتضمن المدح والثناء في حال السراء والضراء، والشكر يكون عند النعمة الظاهرة فقط، فالحمد لله تعالى يكون على جميع الأحوال، بخلاف الشكر فالله عَزَّوَجَلَّ يحمد على كل حال حتى عند نزول المصيبة ووقوع الضرر والسوء.

---

(١) جزء من حديث سيد الاستغفار الذي أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب: أفضل الاستغفار (رقم ٦٣٠٦).

﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ **يتضمن المدح والثناء على المحمود بذكر محاسنه،** سواء كان إحسانًا إلى الحامد أو لم يكن، والشكر لا يكون إلا على إحسان المشكور، فمن هذا الوجه الحمد أعم من الشكر، لأنه يكون على المحاسن والإحسان، فإن الله يحمد على ما له من الأسماء الحسنى ويحمد على ما خلق، أما الشكر فإنه لا يكون إلا على الإنعام؛ فهو أخص من الحمد من هذا الوجه.

﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ **فيه معنى الاعتراف بالجميل،** وفي ذلك تبرؤ من الإنكار والجحود، وهو الذنب الأول لإبليس، لأنه إقرار من العبد بتقصيره وفقره وحاجته، واعتراف لله جَلَّ وَعَلَا بالكمال والفضل والنعمة والإحسان، وضرورته إلى ربه عَزَّ وَجَلَّ وكمال فاقته وفقره إليه، وأن في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقة تامة، وضرورة كاملة إلى ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وأنه إن تخلى عنه طرفة عين هلك وخسر خسارة لا تجبر، إلا أن يعود الله تعالى عليه ويتداركه برحمته، وهذا من أعظم ألوان العبادة، ولا يدخل العبد على ربِّه من بابٍ أوسع، وأفضل من باب الذُّلِّ له والانكسار بين يديه.

﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ **خاص باللسان**، ولهذا جعل الله الحمد قولًا ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ [سورة الأعراف: آية ٤٣] ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾ [سورة الإسراء: آية ١١١] والشكر يكون باليد واللسان والقلب ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا﴾ [سورة سبأ: آية ١٣] فالقول الكريم شكر، والنية الحسنة شكر، وجعل الله الحمد عبادة الكون ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ [سورة الزمر: آية ٧٥] والحمد يدخل فيه الثناء والشكر، فبداية كل شي (بسم الله) ونهاية كل شيء (الحمد لله).

وكل شيء يسبح بحمده، وجعل الله تسبيح عباده بحمده لكونه رب العالمين تسبيح المحبة، ولكونه الرحمن الرحيم، وتسبيح الخوف بمالك يوم الدين، والحمد لله لأنه رب العالمين، فلو أن للعالم ربًّا آخر لفسد ﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ﴾ [سورة المؤمنون: آية ٩١] الكون كله يديره رب واحد .

والله تعالى يستحق الحمد على أن هدانا لصيغة الحمد التي يرتضيها، ففيها كل الثناء على الله كما وصف نفسه، فلم يترك ذلك للناس على اختلاف قدراتهم العقلية والفكرية وعدم تكافؤ الفرص، فرحم الله من لا يقدر بأن قيد من يقدر أن يحمد

بهذه الصفة فقد أخرج الله عبيده من الحيرة في صيغة الحمد، ولا يمكن لأي بيان بشري أن يلم بكمالات المحمود فهي لا تتناهى، ولا تستطيع أن تعبر بقدراتك البيانيه «**لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**»[1].

وحمد الله موجب لرحمته ولا يصرف لغير الله، وقد أذن الله بصرف الشكر دون الحمد ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [سورة لقمان: آية ١٤] فكان الحمد له وحده بينما الشكر له ولخلقه.

والحمد رتبة إيمانية، فأنت هنا تعقد مع ربك عهدًا للدخول في ابتلاء الحمد لينظر هل تنجح فيه، فحينما تصبر على الابتلاء من البأساء أو الضراء، وحين تثبت في حال الاستغناء فلا تزيغ ولا تطغى، فأنت حامد حقًّا.

والرب هو السيد المطاع المالك المتصرف، الذي لا نظير له في سؤدده، وله الخلق والملك والتدبير، وهو يتولى تربية خلقه وإصلاحهم فيما يغدق عليهم من نعمه، وإنه رب للكون كله، وإن كل هذه المخلوقات لا تستغني عن إنعامه وسيادته طرفة عين في

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود (رقم ٤٨٦).

ذات أنفسها وفيما يحيط بها، قلب ينبض، وهواء يتنفس، وأنعم ظاهرة وباطنة، وهذه ليست إلا لله سبحانه، ومن مقتضى هذه الربوبية ألا يخلق الخلق سدى، وألا يتركهم هملًا، بل يعرفهم بكل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم، وعطاء الربوبية يشمل جنس الإنسان مؤمنهم وكافرهم وغيرهم من المخلوقات.

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾[سورة الزمر: آية ٨]

﴿دَعَا رَبَّهُۥ﴾ والرب هو السيد والمُدبر والمُتصرف في شؤون المربوبين، والمالك لهم الذي يُربيهم بصنوف النعم بأنواعها المتعلقة بتربية الأبدان وبتربية الأرواح بالوحي، فهذا فيه إثبات الوحي والنبوة، وإرسال الرسل، عليهم الصلاة والسلام، إنه يُرسل إليهم رسلًا ويُنزل عليهم كُتبًا، فالتربية تكون للأرواح وللأبدان، للأرواح بالوحي والهدى، وللأبدان بما يغذوها به من أسباب كونية أودعها الله مما في الأرض حلالًا طيبًا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[سورة البقرة: آية ١٦٨] فهو تعالى المربي جميع العالمين، وهم من سوى الله، بخلقه إياهم، وإعداده لهم بحواس التعلم، وإنعامه عليهم بالنعم العظيمة التي لو فقدوها لم يمكنهم البقاء، فما بهم من نعمة فمنه تعالى.

وتربيته تعالى لخلقه نوعان: عامة وخاصة، فالعامة هي خلقه للمخلوقين مؤمنهم وكافرهم، ورزقهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم التي فيها بقاؤهم في الدنيا. والخاصة تربيته لأوليائه المؤمنين به، فيربيهم بالإيمان، ويوفقهم له، ويكمله لهم، ويدفع عنهم الصوارف والعوائق الحائلة بينهم وبينه، وحقيقتها تربية التوفيق لكل خير والعصمة عن كل شر.

ولعل هذا المعنى هو السر في أن هذا الاسم العظيم الكبير الشأن عزيز في قلوب ونفوس الأنبياء، فكان أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرب لتضمنه معاني الجمال والجلال والكمال، فإن مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصة، فدل قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ على انفراده بالخلق والتدبير، والنعم، وكمال غناه، وتمام فقر العالمين إليه بكل وجه واعتبار.

و(الرب) هي الملاذ لنا منذ أن أخذ الله من ذرية آدم العهد على الربوبية ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [سورة الأعراف: آية ١٧٢] وهي الإلف الأول قبل الإيجاد، وهي الإلف المصاحب؛ لأن الرب هو المتولي الإيجاد والتربية، ورب كل شيء ومليكه، فيدعو مسبب الأسباب بالاضطرار، ويدل اسمُ (الربِّ) أيضًا على

إصلاحه لأمور عباده بجميل رعايته وحُسن كفايته.

والـرب هو القيُّوم قام بنفسـه؛ وقام به كلُّ شـيءٍ، فهو قائمٌ على كلِّ نفس بخيرها وشـرِّها، قد اسـتوى على عرشـه، وتفرَّد بتدبيـر مُلكـه، فالتدبيـر كلُّه بيديـه، ومصيـر الأمور كلُّهـا إليه، فمراسـيم التدبيرات نازلة من عنده بالعطـاء والمنع، والخفض والرفع، والإحياء والإماتة، والتوبة والعزل، والقبض والبسـط، وكشـف الكروب وإغاثة الملهوفين وإجابة المضطرين ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الرحمن: آية ٢٩].

والعالَمون: كل ما سوى الله تعالى من أجناس الموجودات، لاشـتماله علـى العقـلاء والجمـادات مـن العوالـم المتقدمة والمتأخرة من كل جنس في السماء والارض وما بينهما.

وهو رب كل شـيء ومليكه، رب السـماوات ومن فيهن، ورب الأرض ومـن فيهـن، ورب مـا بينهـن، مما نعلـم ومما لا نعلـم، فـلا تخـرج عن ملكوتـه وقدرتـه، فكلهـم مربوبون مقهـورون، وربوبيتـه منزهـة عـن كل النقائـص والعيـوب، متضمنـة لكل كمال وتعظيم، وهـذه الرعاية بالربوبية لا تنقطع أبدًا ولا تفتر ولا تغيب، والله سبحانه لم يخلق الكون ثم يتركه

هملًا، بل يتصرف فيه بالإصلاح ويرعاه ويربيه، وكل العوالم والخلائق تُحفظ وتُتعهد برعاية الله رب العالمين، فليطمئن المؤمن المكلف إلى أن هذه العوالم لا تخرج عن خدمته، فهي في رعاية الله الدائمة وربوبيته القائمة.

لفظة ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ تدل على معنى لطيف، فالفاتحة وهي أول سور القرآن قد ابتدأت بـ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾ بينما آخر سورة في القرآن سورة الناس قد انتهت بقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ٦﴾ فالمصحف ابتدأ بكلمة العالمين وختم بكلمة الناس، وكأن المعنى أن هذا القرآن ليس للمسلمين فقط بل إن هذا القرآن هو لهداية البشرية كلها.

وربوبية الله تعالى أعظم دليل على ألوهيته وأنه المستحق للعبادة دون سواه، وهي دليل على كمال غناه، وتمام فقرهم إليه من كل وجه، وشمول هذه الربوبية للعالمين جميعًا، فتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الإلهية، فإذا قلت: (لا خالق إلا الله، ولا رازق إلا الله، ولا مُحيي إلا الله، ولا نافع إلا الله، ولا مُعطي إلا الله، ولا ضار إلا الله) فما الحاجة لغيره أن يُعبد أو أن

يُقصـد! هذا يقتضي أن تتوجه إليه بالعبـادة، فإذا كان هو الذي يملك النفـع والضر، فالعبادة والخضوع ينبغـي أن توجه إليه، فهذا معنى أن توحيد الربوبية يستلزم ويقتضي توحيد الإلهية.

ولو استعشر المرء ضعفه وحاجته إلى ربوبية مولاه في كل شـيء لأورثه ذلك الحـب والخضـوع لله رب العالمين مالك الملك، فالتذلل والثناء لله يشعرك بالعزة ويزداد السمو والرفعة في نفسك، فتشعر بلذة العبودية لله، وهي الزاد الحقيقي للحرية من ذل المخلوقين.

والله عَزَّوَجَلَّ يربي عباده بما يجري عليهم من الأقدار، فحياة المؤمن منطوية على ابتلاء يمتحن فيها إذا استقام على أمر الله، وتأديـب إذا خالف منهج الله، ويعلم أن الله يسـوق له مصالحه من حيث لا يحتسـب، فيقبل تربية الله له ويرضى بها، ويحمده أن عجلهـا له في الدنيا ولـم يؤخرها له في الآخرة، وأن لطف به إذ لم يضاعف مصابه.

❊❊❊

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣﴾.

«أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي»[1] عبودية الرجاء والتعلق برحمة الله والتعرض لأسبابها.

لَمَّا جاء وصف الله سبحانه نفسَه بالرُّبوبيَّة، التي تَعني أنَّه السيِّد المالك المعبود، الذي له مطلق التصرُّف في عِباده، والتي قد يُفهم منها معنى الجبروت والقهر - جاء وصفُه بالرَّحمة بعدها لينبسطَ أملُ العبد في العفو إنْ زلَّ، ويَقْوَى رجاؤه إنْ هفَا، وأيضًا لما وصف الله تعالى نفسه بالربوبية بيَّن أن تربيته تعالى للعالمين ليست لحاجة به إليهم، كجلْب منفعة أو دفْع مضرة، وإنما هي لعموم رحمته، وشمول إحسانه.

أمَّا اسماه سبحانه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣﴾ فجمعا صفات الإحسان والجود، والبر والحنان، والمنَّة والرأْفة واللُّطْف، وكُررت الصفة لعمومها وثبوت تعلُّقها، فنعمة الله بربوبيته لخلقه وإفضاله عليهم جارية على وجه الرحمة والرفق واللين واللطف، فبرحمته أرسَل إليهم رسله، وأنزَل عليهم كتبه، وبها

(١) جزء من حديث «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين» الذي أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (رقم ٣٩٥).

هداهم، وبها أسكنهم دارَ ثوابه، وبها رزَقهم وعافاهم، وأنعَم عليهم، وبرحمته وضع الرحمة بين عباده ليتراحَموا بها، وبرحمته رزق عبادَه وخلَق لهم ما يُصلح دنياهم، وهداهم إلى ما يُصلح أُخْراهم، وقدَّر بينهم ما تتمُّ به معايشهم.

﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ **أوسعُ أسمائه، والرحمة أوسع صفاته، قال تعالى:** ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [سورة طه: آية ٥] فاستوى بأوسع صفاته على أوسع مخلوقاته، وكتب لَمَّا خَلَقَ الخَلقَ كتابًا، فهو عنده فوق عرشه: «**أنَّ رحمتَه سبقتْ غضبَه**»(١) وكان هذا الكتاب العظيم الشأن كالعهد منه سبحانه للخليقة كلِّها بالرحمة لهم، والعفو عنهم، والصفح عنهم، والمغفرة والتجاوُز، والستر والإمهال، والحِلم والأناة.

تأمل: جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا، فهذه الرحمة التي تشعر بها هي ١٪ من رحمة الله.

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب: {ورحمتي وسعت كل شيء} (رقم ٧٤٢٢) ومسلم في كتاب التوبة، باب: في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (رقم ٢٧٥١).

انظر: هـؤلاء الخلائق من الآدميين، وأنـواع الحيوانات، والطيـور، والهـوام، كل ذلـك إنما يشـترك برحمـة واحدة قد وُزعـت عليهم! يالله يا الله! ما أرحمك ما أرحمك! سـبحانك وبحمدك.

وهنا هي الرحمة الواسـعة العظيمة التي وسعت كل شيء وعمـت كل حـي، فتشـعر أن ظـلال الرحمة تحوطـك وأنت تصلـي من كل اتجاه، وأنت تستشـعر الثناء والدعاء: (يارب يا رحمن يا رحيم، أدخلني في رحمتك التي وسـعت كل شـيء، فـلا غنى لي عنها طرفة عين) فالدنيـا دار هموم وبلايا وآلامها وتقلباتها التي لا تنتهي، فتتلهف نفسك وتتوق لرحمة الرحمن الرحيم.

ورحمة الله عَزَّوَجَلَّ سبقت غضبه وهو في كتاب عنده موضوع علـى العرش، وهذا الكتاب العظيم الشـأن، كما هو العهد منه سـبحانه، للخليقة كلهم بالرحمة لهـم، والعفو عهم والمغفرة والتجاوز، والستر والإمهال والحلم، فكان قيام العالم العلوي والسـفلي بمضمون هذا الكتاب الذي لولاه لكان للخلق شأن آخـر. فرحمته عمت حتـى الكافر، لكن تلك الرحمة جسـدية

بدنية دنيوية، من رزق وطعام وشراب ومسكن ومنكح وعافية بدن، إلخ، أما المؤمنون فرحمتهم أخص من هذه وأعظم لأنها رحمة إيمانية دينية دنيوية أخروية.

وبدأ بالرحمن لأنه الاسم العظيم الخاص به تعالى عام متضمن لصفات الاحسان والجود والبر لجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم، بتيسير أمورهم في معيشتهم وحياتهم، فتنفعل لهم الأسباب بأمره ورحمته لهم، وإنعامه عليهم بالعقل، ومن رحمته أن أقام عليهم الحجة وأعذرهم بالرسل. واسم الرحيم من آثار فعله في خلقه خاص بالمؤمنين ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [سورة الأحزاب: آية ٤٣] وقد ذكرت كلمة الرحمن في القرآن ٥٧ مره وذكرت الرحيم ١١٤ مرة، أي ضعفها تمامًا، فسبحان الله جلت حكمته.

قرن تعالى بين ربوبيته ورحمته ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾﴾ لأن ذكر الربوبية والرحمة يؤدي إلى الحب، فالقلوب مجبولة على حب من أحسن إليها، وأعظم ما يستدر العبد به رحمة ربه أن ينكسر بين يديه، وأن يظهر عبوديته له وذله وعجزه وفقره، فذكر الربوبية بعد الرحمة يشعر بالحب

فهو سبحانه يربي عباده برحمته قبل غضبه «**رحمتي سبقت غضبي**»[1] فهو محبوب لربوبيته ولرحمته، والقلوب مجبولة على حب من أحسن إليها، فشمل جميع العالمين برحمته.

وصلة الرحمة والرعاية التي تستجيش الحمد والثناء هي صلة تقوم على الطمأنينة وتنبض بالمودة، فالحمد هو الاستجابة الفطرية للرحمة الندية. والرحمة هبة من الله، ورحمات الخلائق فيما بينهم هي فيض من رحمة الله، ولذا جاء الحمد سابقًا لنعمة الرحمة، وكل رحمة صدرت منك أو وقعت عليك فهي هبة من الله عَزَّوَجَلَّ ولا يجد المؤمن أمام هذه الهبة إلا أن يحمد الله ويرضى عن الله، فهو سبيل محبته.

والرحمة هي باب الله الأول، من طرقه فتح له، ومن أعرض نودي عليه، فإن لم يصغ تحسر عليه ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾[سورة يس: آية ٣٠]خلقهم الله عَزَّوَجَلَّ بالرحمة، ورزقهم بالرحمة، وهداهم بالرحمة، حتى إذا ظلوا أو كفروا ناداهم

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [سورة الأعراف: آية ١٥٦] (رقم ٧٤٢٢) ومسلم في كتاب التوبة، باب: في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (رقم ٢٧٥١).

بالرحمة وفتح لهم أبواب الرحمة ليتوبوا، ولم يجعل لأحد اليأس من رحمته، وهو أوسع أبواب الوصول إليه ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [سورة الأعراف: آية ١٥٦] ونبي الرحمة سابق للعذاب ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [سورة الإسراء: آية ١٥] وكذلك المصائب والآلام التي تنزل بالمؤمنين هي رسائل رحمة حتى يعودوا أو يتأدبوا ويتضرعوا.

ولو تأمل الإنسان حاله مع ربه، كيف يشكر غيره ويعصي أمره ويواقع نهيه، ثم هو سبحانه يعمهم ببره وإحسانه، يهديهم ويبتليهم بالخير والشر ويمهلهم، لأوجب ذلك في قلبه توبة وحياء ومزيد حب وتعلق ورجاء.

فهل نجد هذه المحبة في قلوبنا (الوجد والشعور والإحساس) والمحب لربه لا يستطيع أن يجد نفسه حيث نهاه، فهو يستحي أكثر من أن يخاف لأنه محب ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [سورة آل عمران: آية ١٧٥] لأن أسماء الله تعالى الدالة على الرحمة سابقة إلى قلبه.

والجمع بين الرحمن والرحيم يدل على كمال رحمته، فهو المتصف بالرحمة ذاتًا وفعلاً وأثرًا في المخلوقين، وأعظم

ما تستدر به الرحمه أن ينكسر العبد بين يدي ربه ويظهر عبوديته وعجزة وضعفه وفقره إلى رحمته، وهو محسن الظن به.

وكل ما ترى في الكون من آثار رحمة الله، وهذ الكتاب العزيز الذي بين أيدينا من آثار رحمة الله، والتكاليف في حقيقتها من رحمة الله، وكل ما تراه وما تسمعه من فضل الله، وشرعه وتقديره في كونه فهو من آثار رحمة الله، فلا تعلم أين رحمة الله في المرض والابتلاءات، فقد يكون ادخرها الله عَزَّوَجَلَّ لك جبالًا من الحسنات فتفرح بهذا الابتلاء، قد تتعثر قدمك في حياتك مما قد تكرهه فيكون من آثار رحمة الله بك لو أنك تبصر ما في الغيب، كذلك هي أقدار الله، نحن نعيش في كل ثانية وما في أجسادنا وما يحيط بنا من حولنا كلها من آثار رحمة الله الرحيم بهذه التشريعات كلها رحمة وحكمة ولطف وعون من الله العظيم.

فهذه الأسماء الثلاثة: الله والرب والرحمن، هي أصول الأسماء الحسنى، فاسم الله متضمن لصفات الألوهية؛ حق الله على العباد وتوحيد الله وإفراده بأفعالهم، واسم الرب متضمن لصفات الربوبية؛ حق العباد على الله وإفراد الله تعالى

بأفعاله كالخلق والملك والتدبير، واسم الرحمن متضمن لصفات الجود والبر والإحسان، والرحمة سبب واصل بين الرب وعباده، فقرَن سبحانه رحمته هنا بربوبيَّته للعالمين، فقال سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ فشملَ جميعَ الخلائق برحمته؛ فوسِعتْ رحمتُه كلَّ شيءٍ، ووسعتْ نعمتُه كلَّ حيٍّ، فبلغتْ رحمتُه حيث بلغَ عِلمُه، فبين خَلْقه وبينه سببُ العبودية، وبينه وبينهم سببُ الرحمة، وهو رب كل شي وخالقه والقادر عليه، وكل من في السماوات والأرض عبد له وفي قبضته وقهره.

❊❊❊

﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾.

«مَجَّدَنِي عَبْدِي»[1] التمجيد بصفات الكبرياء والعظمة والملك.

الدين في هذا السياق معناه الجزاء بالعدل، فهو مجازاة

(١) جزء من حديث «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين» الذي أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (رقم ٣٩٥).

المكلفين من جنس كسبهم، فيثاب المطيع المحسن ويعاقب المسيء العاصي، ويقتص للمظلوم من الظالم.

فلما وصف تعالى نفسه بالرَّحمة، وكان هذا قد يؤدِّي بالعبد إلى غلَبة الرَّجاء عليه، نبَّه بصفة المِلْك ليوم الدِّين ليكون العبد من عمله على وجَل، وليعلمَ أنَّ لعمله يومًا تظهر له فيه ثمرته من خيرٍ وشر، وأيضًا لما كانت الربوبيَّة لا تتمُّ إلا بالملك المفيد للعزَّة، المقرون بالهيبة المثمرة للبطش والقهر ونفوذ الأمر - أتْبَعَ ذلك بقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ ترهيبًا من سطوات مجده.

هذا هو التمجيد في أعظم صوره، وذلك أنه مالك يوم الدين (وتأمل العظمة) والمالك هو من اتصف بصفة الملك والسلطان والقدرة التي من آثارها يأمر وينهى ويثيب ويعاقب، ويتصرف بمماليكه بجميع أنواع التصرفات، ويوم الدين هو يوم القيامة يوم يدان كل الخلق ويحاسبون فيه بأعمالهم خيرها وشرها، وإنما أضيف إلى يوم الدين لأنه لا يدعي هناك أحد غيره جَلَّ وَعَلَا ولا يتكلم أحد إلا بإذنه سبحانه، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ

﴿صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ [سورة النبأ: آية ٣٨] في الآية تمجيد وتعظيم للرب جَلَّ وَعَلَا حيث يتجلى فيه كمال ملكه وعدله وتفرده بالملك يومئذ، وانقطاع أملاك الخلائق بلا دعوى من أحد، حيث يجتمع الخلائق ويتجردون من ملك وتصرف.

ذكر أنه عَزَّوَجَلَّ ملك يوم الدين، بعد كونه ربًّا للعالمين، بيان أنه تعالى رب لهم في الدنيا والآخرة، وأن مقتضى حمده ورحمته أن يجازي الناس بعدله ويوفي كل عمله، فتصرُّفه في مُلكه دائرٌ بين العدل والإحسان، والحِكْمة والمصلحة والرحمة، ولا يخرج تصرُّفه عن ذلك.

فيه إثبات للبعث واليوم الآخر ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [سورة غافر: آية ١٦] وإثبات المعاد، وفيه إثبات أيضًا الرسل والرسالات والكتب؛ لأن يوم المعاد والجزاء والحساب، فالله لا يُعذب الناس إلا إذا أقام عليهم الحجة، بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

وفي دنيا الأسباب يمد الله من يشاء بأسباب الملك، لكن في يوم الدين يزول الملك والمالك ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ [غافر: ١٦] ﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [سورة الانفطار: آية ١٩] وهو عَزَّوَجَلَّ مالك

أمـور هذا اليوم كلـه زمنًا ومكانًـا ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [سـورة الأعراف: آية ١٨٧].

ويطلـق اليـوم مقابـل النهـار ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ [سـورة سـبأ: آية ١٨] لأن الناس قبل القيامة في ليل تشـملهم قبـل ذلـك غيبوبة الموت، فكأنه اسـتيقاظ نهار، وهو سـبحانه ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن: ٢٩] وشـانه لا ينتهي لا ليلًا ولا نهـارًا، ومن أسـرار الفلك أنه في أي لحظة يبـدأ نهار ويبدأ يوم، حتـى أن أهـل الجنة يقيلـون في الجنة ذلك اليـوم في آخر نهاره ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [سورة الفرقان: آية ٢٤].

والمؤمـن يقرأ ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ فـإن فاته جزاء في الدنيـا فيطمئن أن جزاءه في الآخرة لن يفوتـه، وهو أربى فائدة ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [سـورة آل عمـران: آية ١٨٥] فـإن كنت تفرح بمن يعطيـك فانت من أهل الدنيـا، وإن كنت تفرح بمن يأخذ منك كنت من أهل الآخرة.

﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ **سُمِّي بذلك لأنه يوم الجزاء بالعدل ويوم القهْـر**، وهو يـوم لا تنفع فيـه إلا الطاعة، يوم يقـوم الناس من قبورهـم، ويقوم الأشـهاد من الرسـل والملائكة، يـوم العدل

الحقيقي، يوم إدانة الخلائق ومجازاتهم ومحاسبتهم بأعمالهم، وخصَّه بالملك لتفرُّده سبحانه فيه بالحُكْم، ولأنه اليوم الحقُّ وما قبله كساعة، ولأنه الغاية وأيام الدنيا مراحل إليه، ومعناه عند جميع المفسرون ما فسره الله تعالى به في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩﴾ [سورة الانفطار: آية ١٩].

خص ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ بالملك لخطورته وعظمه، ولأنه ختام لأيام يظهر فيه ملك الله الكامل، ففي الدنيا قد يوجد من يملك شيئًا مع كونه خاضعا لملك الله، أما يوم القيامة فلا ملك ولا مالك إلا الله عَزَّوَجَلَّ. وأيضًا خص يوم الدين بالملك مع أنه سبحانه مالك كل الأيام، وقد تقدم الإخبار أنه رب العالمين، وذلك عام في الدنيا والآخرة، إلا لشأن عظيم ولمسألة كبيرة، بسبب معرفتها دخل الجنة من دخلها، وبسبب الجهل بها دخل النار من دخلها.

من فهم اسم المالك (الملك) وفقهه علم أن كل مخلوق في هذا الكون خاضع وطائع لأمره، ومهما يملكوا من مناصب وأموال فهم في الحقيقة عاجزون عن التصرف الكامل ﴿فَبُهِتَ

﴿ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] يملكهم ويقهرهم ربهم، فيولد العزة في قلب المؤمن، ويتحقق توحيد الذل لله، وهو من أركان العبودية.

والمصلي حين يقرأ ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ يحاسب نفسه في محطات الصلوات التي يقف فيها بين يدي ربه ليستشعر عظمة مالك يوم الدين، فيعيد النظر فيما قدمه بين الصلاتين من قول أو عمل، ليدرك في أي كفتي الميزان توضع، وليدرك أنْ لا توفيق ولا فلاح إلا من وفقه الرحمن الرحيم، وأخذ بناصيته إلى الخير والطاعة وثبته عليها، وأن من سلك سبيل الغي واتبع هواه وانساق وراء أهل الزيغ والضلال فنهايته إلى غضب الله وعذابه.

﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ **يوم يجازى الناس بأعمالهم،** يوم الجزاء بالعدل في الحقوق من بعضهم، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر، ولهذا يجد المؤمن أثرًا بليغًا في نفسه وفي كل تصرفاته في شؤون الحياة، سلوكًا ومعاملة وإنصافًا مع كل أحد، فيحسن العمل والاستعداد والاستقامة، ويتجنب حقوق الآدميين؛ لأنه يعلم يقينًا أن الموعد هو اليوم العظيم، يوم الدين، يوم الجزاء ﴿يَوۡمَ

﴿يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦﴾ [المطففين: ٦] ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ﴾ [سورة النور: آية ٢٥] أي جزاء أعمالهم بالعدل.

هو اليوم الذي يستحق أن يعمل له وأن يحسب له كل حساب، لا أيام الدنيا، بل ولا الدنيا كلها، لذا نجد القرآن الكريم كثيرًا ما يقرن بين الإيمان بالله تعالى والإيمان بهذا اليوم؛ لأنه أكبر حافز على الاستعداد بالأعمال الصالحة.

إذا كانت نعم الله تعالى تستحق الحمد، فإن ملكه ليوم الدين محمدة يستحق عليها الحمد الكثير، فهذه الملكية نعمة كبرى، فهي التي تحمي حق كل ضعيف أو مظلوم في هذه الدنيا، فهي من تمام وكمال ملكه سبحانه، فإنما يظلم من نقص ملكه ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَ﴾ [سورة غافر: آية ١٧].

إن عقيدة الإيمان بيوم الدين، اليوم الآخر، مفرق طرق بين رق الشهوات والنزوات، وانطلاقة النفس من رق شهواتها إلى رحاب العبودية لله، ومفترق طرق بين الخضوع لتصورات الدنيا وقيمها وموازينها والتعلق بالقيم الربانية.

ولا تستقيم حياة البشر على منهج الله ما لم يؤمنوا بيوم البعث والنشور، وما لم تطمئن قلوبُهم إلى أنَّ جزاءَهم على الأرض ليس هو نصيبهم الأخير، وما لم يثق المؤمن بأنَّ له حياةً أخرى تستحقُّ أنْ يجاهدَ لها، وأنْ يضحِّي لنُصرة الحقِّ والخير معتمدًا على العوض الذي يلقاه فيها.

ومن تيقن في قلبه حقيقة ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ لا يرى لضرورات الدنيا الزائلة تحكمًا فيه، فيستعلي عليها، فيبعث في نفس المؤمن الطمأنينة، فعمله الصالح لن يذهب سدى ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [سورة آل عمران: آية ١٨٥] فلا يستبد به القلق على تحقيق جزاء سعيه في عمره القصير المحدود، وفي مجال الأرض المحصور، فيخلصه لوجه الله طمأنينة وثقة بوعد الله وانتظار الجزاء حيث يقدره الله، في الأرض أو في الدار الآخرة، في طمأنينة لله، وفي ثقة بالخير، وفي إصرار على الحق، وفي سعة وسماحة ويقين.

ولا يستوي المؤمنون بالآخرة والمنكرون لها في شعور ولا خلق ولا سلوك ولا عمل، فهما صنفان مختلفان من البشر، وطبيعتان مختلفتان لا تلتقيان في الأرض في عمل، ولا تلتقيان

في الآخرة في جزاء، وهذا هو مفرق الطرق بينهما.

﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ **أمل الصابرين والمحتسبين** الذين جاهدوا أنفسهم على ترك المعاصي والسيئات وصبروا عن الشهوات في الدنيا، كانوا يقولون: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [سورة الإنسان: آية ١٠] فموعدهم يوم الدين يوم الجزاء والحساب، تأتيهم البشارة من الرحمن ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾ [سورة الإنسان: آية ١١].

﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ **عزاء المظلومين والمحرومين، يوم تجتمع الخصوم،** وهناك مالك يوم الدين ناصر المظلومين والمستضعفين، وهنا يصبر المسلم ويرضى ويسلم وتهدأ آلامه وجراحه ودموعه، ويحتمل الظلم الذي يقاسيه والظلم الذي يعيشه في الدنيا لأنه يعلم أنه هناك منصور ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [سورة الفجر: آية ١٤].

انتهى القسم الأول من الفاتحة؛ الثلاث الآيات الأولى، وتضمن الصفات الأربعة؛ الألوهية والربوبية والرحمة والملك، وهي أصول الأسماء كلها، وتضمنت أركان الإيمان بالله، وهي أسباب استحقاق العبودية؛ معرفته ومحبته بالحمد

ألوهيـة وربوبية، رجـاؤه والطمع بما عنده مـن الرحمه بكونه الرحمـن الرحيـم، خوفـه وخشـيته ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ [سـورة الأنعام: آيـة ١٥] بكونه مالك يوم الدين.

وهذه الأسـماء الأربعة: الله، والرب، والرحمن، الرحيم، والمالك، تدور عليها جميع الأسـماء والصفات، والكمالات جميعًـا ترجـع إليها، الصفـات المتعلقـة بالإلهيـة، والمتعلقة بالربوبيـة، والمتعلقـة بالرحمة، والصفـات المتعلقة بالمُلك، فعليهـا مدار أسـمائه سـبحانه وصفاتـه، أي إنَّ هـذه الصفات في اتِّسـاعها وشـمولها وكمالها تجمعُ تحتهـا صفات الجلال والكمال والجمـال التي تدل عليها بَقيَّة أسـماء الله، فمن تدبَّر معانيها، فُتحتْ له أبواب الهداية والعلم بمولاه.

في ذكْـرِ هـذه الأسـماء بعد الحمـد، وإيقـاعِ الحمد على مضمونها ومقتضاها ما يدلُّ على أنَّه محمود في إلهيَّته، محمودٌ في ربوبيَّتـه، محمـود في رحمانيَّتـه، محمود في مُلكـه، وأنه إله محمود، ورب محمود، ورحمن محمود،ومَلِك محمود.

فتأمل: حمد يحملك على الحب لهذا المحسن المتفضل بإحسانه عليك، أن خلقك من عدم وربـاك بنعمه، وأنت جزء مـن هباءة في ملكه، وهـو في ذاته قبل هذا الإحسـان إليك أهل الثناء والمجد، حمد نفسـه العلية وأثنـى عليها ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سـورة فاطر: آية ١] المتعـزز بالعظمة والكبرياء والمتفرد بالبقاء.

فلا تملك إذا عرفته وآمنت به إلا أن تحبه، والمحبة ليست ركعتين أو صوم يومين، المحبة إحساس لا يكتسب بل يوهب من الله ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [سـورة البقرة: آية ١٦٥] ومحبة الله يدركها المؤمن بجلب أسبابها، بأن يتعرف على مولاه لإحسانه ومحاسـنه وإنعامه وتفضله، ومع اعترافـك بهذا الجميل الذي يأخـذ بمجامع قلبك أنت عاجز عن شـكره، بل أنت مقصر في حقـه، فلا تملـك إلا أن تخجل وتـذل نفسـك وتزدريها، فإذا تملكك هذا الإحسـاس تعبّد قلبك لربك وخضع له، ودخلت في أهـم أعمال القلوب التي سـتفيض علـى جوارحك فتحقق العبادة، هذا بحمد ربك فقط.

والمحب لا يرى كلفة في عمله، فالمحب منفعل لمن يحب ولمراضيه، حتى لو كان أمر حبيبه على كره منه، فهو يعبد الله ويحس بأنواره ترعاه وتحيطه من جهاته يمد بها الكائنات بأسباب الوجود والرزق والرحمة.

فالله قد ضرب ذل العبودية على الناس، فمن لم يذل اختيارًا أذله الله اضطرارًا رغم أنفه، يمضي إلى ما قدر الله عليه ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [سورة مريم: آية ٩٣].

وأنت مخلوق مربوب في هذا العالم، تتلمس طريقك وتتساءل وترجو: يا ربي، إني أحبك، وأنت تستحق الثناء على نعمك وآلائك، فيلهج لسانك بحمد ربك وتنزيهه والثناء عليه وشكره، فيأتي التمجيد الثاني ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾﴾ فتطمئن وترجوه وتطمع في رحمته بأن يتجاوز عن تقصيرك ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ [سورة الأحقاف: آية ١٦] فهو يقبل من قليل العمل برحمته ويتجاوز عن التقصير برحمته ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [سورة الأعراف: آية ١٥٦] ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [سورة الشعراء: آية ٨٢].

فلا أحد يدخل الجنة بعمله كما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الجَنَّةَ**» قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**لاَ، وَلاَ أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ**»(١) فما بقي إلا الطمع والرجاء في الله: طائع يرجو أن يقبل عمله فلا يترك عملًا دقيقًا ولا صغيرًا مهما كان إلا عمله، لعل نجاته فيه، وعاص يرجو أن يغفر ذنبه فهو خائف، وهذا يحدث كسرًا في القلب، وأن تبسط أنامل الرجاء، أن يريك ثواب الكف عن المنهي، يغريك بتركه، والرجاء عبودية متى خرجت من القلب أوقعت المرء في الياس.

ثم يأتي التمجيد والثناء الثالث ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ حيث تذكير المؤمن بيوم الحساب والجزاء، وما يلزم من الخوف من عذاب يوم عظيم، فالخوف والرجاء متلازمان في قلب المؤمن ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ۝٥٠﴾ [سورة الحجر: آية ٥٠].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب: القصد والمداومة على العمل (رقم ٦٤٦٣) ومسلم في كتاب صفات المنافقين، باب: لن يدخل أحد الجنة بعمله (رقم ٢٨١٦).

بعد أن أنهى اليقين بمستحق العباده فقد تهيأ قلبه للدخول في العبادة واستعد لها، وامتلأ بحب ربه، فهو يسير إليه بجناحي الرجاء والخوف، فالمطيع العامل أكثر همه الخوف من سوء الخاتمة وعدم قبول العمل ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [سورة المؤمنون: آية ٦٠] وهو أيضًا يخاف أن عمله لا يدخله الجنة، أو يرد عليه عدلًا من الله، فيجدّ في العمل مرة أخرى حتى يصل إلى سقف القدرة، فيأتيه الخوف مرة أخرى؛ هل شكرت نعم الله عليك؟ لا يزال يتقلب بين الخوف والرجاء حتى يصل إلى الله في قمة عمله، والعاصي التائب أكثر همه أن يرحمه الله ويتجاوز عنه.

فهذا القسم الأول من هذه السورة العظيمة يهيئ المؤمن لاحتواء العبادة، فهو منعم يربي عباده بنعمه.

❊❊❊

القسم الأوسط

الإقرار

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

«هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي»[1] ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [سورة هود: آية ١٢٣].

هذا هو القسم الثاني أو الأوسط من هذه السورة العظيمة، فبعد ذكره تعالى اتصافه بأحسن صفات الجلال والتمجيد والثناء والحمد والشكر له، ولما استجمع الأمر أنه المستحق للحمد كله وتحببًا لعباده بالربوبية وترغيبًا لهم بالرحمة وترهيبًا بيوم الدين، كان من شأن كل عاقل الإقبال إليه وقصر الهمم عليه وموجبًا لاستحقاقه واختصاصه بالعبادة والاستعانة، قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لله سبحانه وبحمده ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ للعبد، وللعبد ما سأل، وهي بشرى عظيمة للمصلين بأن الله يلبي طلبهم ويستجيب دعوتهم.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ هي العِقد من فاتحة الكتاب، هي الوسط، قبلها ثلاث وبعدها ثلاث، وهي العهد والوعد بين العبد وربه، يقول العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فيقول

(١) جزء من حديث «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين» الذي أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (رقم ٣٩٥).

الرب: «هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي» ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ «وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ» أي إن لك بعد هذه الآية أن تسأل ما تريد ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ [سورة البقرة: آية ١٨٦] الذين قالوا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ بقلوبهم بألسنتهم بأفعالهم بأحوالهم في حياتهم، وقالوا أيضا ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لأنه لولا عون الله لما استطاعوا أن يعبدو الله.

إن سر الفاتحة وأساسها هاتان الكلمتان ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ فهما مدار العبودية والتوحيد وسر الخلق والأمر، والمقصود الأعظم، وهي ملخص رسالة الحبيب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي جاء القرآن لبيانها وشرحها.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ في هذه الآية رغم قصرها أسرار غريبة ومعان عجيبة، وعليهما مدار العبودية والتوحيد، وهما الكلمتان المقسومتان بين العبد وبين ربه نصفين، فنصفهما له تعالى وهي ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ونصفها لعبده وهو ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لأن أولها اقتضى عبادته بالأمر والنهي، والمحبة والخوف، والرجاء والطاعة والتعظيم، وآخرها اقتضى عبوديته بالاستعانة والتوكل والثقة والتفويض

والتسليم والاعتماد عليه.

إن أجـل الغايـات عبوديته، وأفضل الوسـائل إعانته، فهو يعبد بألوهيته ويستعان بربوبيته، ويهدي إلى الصراط المستقيم برحمته، فلا معبودَ يستحقُّ العبادة غيره، ولا مُعينَ على عبادته غيرُه، فعبادتُه أعلى الغايات، وإعانتُه أجلُّ الوسائل.

بعد الثناء بأحسـن الصفـات على الله تعالـى أعقبها العبد بأحسـن ما ينبغي له تجاه ربه وإلهـه الموصوف بهذه الصفات الحسـنى، فتوجه له بالعبـادة وطلب منه الإعانـة عليها، وهذا توسـل بالعبودية والتوحيد بعد أن توسـل بالأسـماء الحسـنى والصفات العلا، وهذان التوسلان لا يكاد يرد معهما الدعاء.

لما ذكر مسـتحق الحمد تحقيقًا وثنـاء وتمجيدًا، ووصفه بصفـات عظـام تميـز بهـا عـن سـائر الـذوات، وتعلـق العلم بمعلـوم معيـن، خوطـب بذلـك، أي: يا مـن هذا شـأنه وهذه الصفـات صفاته، نخصـك بالعبـادة والاسـتعانة، ليكون أدل على الاختصـاص، وللترقي من البرهان إلى العيان، والانتقال مـن الغيبـة إلى الشـهود، فـكأن المعلوم صـار عيانًـا حاضرًا، والمعقول مشاهدًا والغيبة حضورًا.

فـأول التدبـر أن تقف مع نفسـك وهذه الآيـة؛ هل تنطبق عليـك؟ أي هل أنت تمتثل الأوامر حتى تعرف أنت تعبد من؟ (حـيّ على الصلاة) أمـر من ربك، دعوة من ربـك، قالت لك نفسـك: ارقد. قال لك الشـيطان: ارقد. فلمن تسـتجيب؟ هل تسـتجيب لهـوى نفسـك؟ إذا إردت أن تحقـق ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ بقلبك ولسـانك وبجوارحك وبأحوالك، ينبغي أن تتجرد، أن تتحرر، أن تخرج من سـلطان نفسـك عليك ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [سورة يوسف: آية ٥٣] لا تتبع أمرها وهي تأمر بالسوء، وإذا تعارضـت مصلحة دنيويـة وأخرويه فهناك قولـه تعالى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ [سورة طه: آية ١٣٢].

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ هذه الكلمة تجمَعُ سِرَّ الكتب المنزَّلة من السماء كلها؛ لأن الخَلْقَ إنما خُلقوا ليُؤمَروا بالعبادة، كمـا قـال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [سـورة الذاريـات: آيـة ٥٦] وإنما أُرسِـلَت الرُّسـلُ وأُنزِلَـت الكتُبُ لذلـك، فالعبـادةُ حَـقُّ الله على عبـاده، ولا قدرةَ للعبـاد عليها بـدون إعانـةِ الله لهم، فلذلـك كانت هذه الكلمـة بين الله وبين عبده، لأن العبادةَ حقُّ الله على عبده، والإعانة من الله فضلٌ من الله على عبده.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ أي: نخصك وحدك بالعبادة والاستعانة، نعبدك ولا نعبد غيرك، ونستعين بك ولا نستعين بغيرك، ونحن إذ نريد أن نطيعك ونعبدك ونتقرب إليك فإننا نفوض الأمر إليك، ونتبرأ من حولنا وقوتنا، فإن لم تعنا على ذلك خسرنا، ولا حول ولا قوة لنا إلا بك! تستنجد بالله وتستغيث: يارب، إنا نعتمد عليك فأعنا على مرضاتك وطاعتك.

لا نعبُد إلّا أنت، متذلِّلين لكَ وحْدَك لا شريكَ لك، ولا نستعين إلَّا بك وحْدَك لا شريكَ لك، نعبدك وحدك، نخصك بدعائنا وخوفنا ورجائنا وصومنا وصلاتنا وذبحنا ونذرنا، وغير هذا من العبادات، كلٌّ لله وحده، فهو الذي يدعى ويرجى ويخاف ويتقرب إليه بالصلاة والصوم والحج والنذر والذبح وغير ذلك، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ يعني ذبحي ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ۝١٦٣﴾ [سورة الأنعام: آية ١٦٣].

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ أشارت إلى تحقيق معنى (لا إله إلا الله) بنفي ما يعبد من دون الله تعالى في تقديم

﴿إِيَّاكَ﴾ والإثبات بإفراد الله بالعبادة في ﴿نَعْبُدُ﴾.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مبني على الإلهية ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ مبني على الربوبية، وهذا أول شروط قبول العبادة، وهو الإخلاص، في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فتقديم المعمول يفيد الحصر، وهي تعلن ميلاد التحرر البشري الكامل الشامل، التحرر من عبودية سوى الله. وإذا كان الله وحده هو الذي يعبد، والله وحده هو الذي يستعان، فهذا تخليص للبشر من استذلال النظم والأوضاع والأشخاص، ومن استذلال الأساطير والأوهام والخرافات.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أن نبدأ مع أنفسنا حقيقة ومصارحة، وكلٌّ خبير بنفسه، التجرد من جميع المتسلطين على قلوبنا ونفرغ قلوبنا إلى ربنا عَزَّوَجَلَّ ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [سورة الفتح: آية ١٨] ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ﴾ [سورة الأنفال: آية ٧٠] إن المحب لمن يحب مطيع.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لأنك إن حققتها وجدت ما بعدها، بل أعطيت ما بعدها، وهو (إياك نستعين) وإن وصلت إلى حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فاعلم أن (إياك نستعين) ناتج موجود محقق

«يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ»[1] أي: أعنته على عبادتي، وسهلت له ويسرت له وقربته، فلا يكون في قلبه سواي، ولا يمشي إلا إلى مرضاتي ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ [سورة فصلت: آية ٣٠] فقولك: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ سهل لكن الاستقامة صعب لأن عوامل الانحراف كثيرة.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هو عَزَّوَجَلَّ مستحق العبادة لأن له الحمد، وهو مستحق العبادة بالمحبة والتعظيم قبل الرجاء والخوف. والعبادة لا يمكن أن تكون إلا إذا كان المعبود معروفًا، لهذا كان العلم بـ(لا إله إلا الله) قبل كل علم وقبل كل عمل وقبل كل نية أو قصد ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [سورة محمد: آية ١٩] لا معبود بحق إلا الله، وماخلق تعالى هذا الكون بعوالمه إلا ليعبد وحده ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤] ولا إله في الدنيا ولا إله في الآخرة سواه، وهو إله الأولين والآخرين.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وأنت تقولها فتصور الخلق كله وتنظر في

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب: التواضع (رقم ٦٥٠٢).

دقـة الخلق وقوة الخلق وجمال الخلق وحسـن الخلق ﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ٥٠﴾ [سـورة طـه: آيـة ٥٠] وأن تدبيـر الخلق والملك بيد الله ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سـورة السجدة: آية ٥] وهو خلق بعلم، وهذا العلم مكتوب.

الحمـد لله غيب، ورب العالمين غيب، ويوم الدين غيب، فالتفت السياق إلى إياك، لا (إياه) من الغيب إلى الحضور، إلهًا ربًّا رحيمًا مالكًا بفضائل الألوهية وفواضل الربوبية والرحمانية والرهبة في ملك يوم الدين، فأصبح الإله الغيب بتلك الحيثيات السابقه إلهًا حاضرًا لديك بالتخصيص بضمير (إياك) لأن مقام الإحسـان أن تعبد الله كأنك تراه، فتحقق لك الإحسـان بعد أن تحقـق لك الإيمان، كأن العبد لما حمد ربه وأثنى عليه ومجّده قربه وأدناه، فصار الأسلوب فيه غيبة في أوله، ثم صار حضورًا بين يدي ربه. وسر هذا الالتفات أن الحامد لما حمد الله تعالى ووصفه بعظيم الصفات، بلغت به الفكرة منتهاها، فتخيل نفسه في حضرة الربوبية، فخاطب ربه بالإقبال، ولذلك تحول الكلام من الثناء إلى الدعاء، والدعاء يقتضي الخطاب.

والأصل في العبادة التذلل والخضوع، ومنها سمي المملوك عبدًا لذلته وخضوعه وسكينته وخشوعه وانقياده لسيده ومولاه، ومنها الناقة الذلول، أي مذللة للركوب في الحوائج، والطريق المعبَّد، هو المذلَّل للسير فيه، فهي التعبد والخضوع والتذلل لله محبة وتعظيمًا، فلو عبَّد المرءُ قلبَه لسارت عليه نصوصُ الوحي مثمرةً؛ امتثالًا للأمر واجتنابًا للنهي، وعلى قدْر وعورة القلب وقساوته يكون تململه وعناده.

فالعبادة هي كل ما تُعبّد الله به، سواء كان ذلك مما يجب فعله أو مما يجب تركه، أو مما يستحب فعله أو مما يستحب تركه، ويدخل في ذلك المباحات مما يعمله الإنسان لمصلحته إذا قصد به التقرب إلى الله بالتقوي على طاعته أو إظهار نعمته.

❁ وللعبادة بمعنى التعبد شرطان:

■ الشرط الأول:

معرفة المعبود عَزَّوَجَلَّ فحتى يتحقق الذل والخضوع للمعبود فإنه يشترط أن تتحقق معرفته، والسبيل إلى ذلك هو العلم بما للمعبود سبحانه من الأسماء والصفات ومعاني الربوبية، وما له من كمالات، والله سبحانه له الكمال المطلق

التام في كل وجه، وروبوبيته لخلقه بنعمته وإفضاله مقابل تقصير العبد ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة عبس: آية ٢٣] فيحبه وينكسر له ويذل ويخضع ويخشع.

■ الشرط الثاني:

وهو معرفة دينه، فإن شرط المحبة هو متابعة أوامر المعبود واجتناب نواهيه، وأوامره ونواهيه هي دينه الذي أنزله، ولا يمكن أن تتحقق المتابعة لدينه إلا بعد معرفته، ولذلك كانت معرفة دين الله شرطًا في التعبد.

اعتبار كمال الحب مع كمال الذل هو أصل التأله (التعبد)

والعبادة تجمع كمال المحبة وكمال الذل، فالعابد محب خاضع، ويخرج من العبوديه من يحب لمن لا يخضع له، كمن يحب ليتوسل إلى محبوب آخر، ومن يخضع لمن لا يحب كمن يخضع للظالم رغمًا عنه، فأساس العبادة المحبة والتعظيم، والعبادة مبنية على أمرين عظيمين: المحبة والذل له، لإحسانه وإنعامه والشعور بالتقصير في حقه، والتعظيم والثناء لمحاسنه وكمالاته، وينتج عنهما ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [سورة الأنبياء: آية ٩٠].

فبالمحبة تكون الرغبة والرجاء، وبالتعظيم تكون الرهبة والخوف، ولهذا كانت العبادة أوامر ونواهي؛ أوامر مبنية على الرغبة وطلب الوصول إلى الآمر، ونواهٍ مبنية على التعظيم والرهبة من هذا العظيم.

فإذا أحببت الله تعالى رغبت فيما عنده، ورغبت في الوصول إليه، وطلبت الطريق الموصل إليه،وقمت بطاعته على الوجه الأكمل، وإذا عظمته خفت منه، كلما هممت بمعصية استشعرت عظمة الخالق تعالى ومراقبته فنفرت، فهذه من نعمة الله عليك، إذا هممت بمعصية وجدت الله أمامك، فهبت وخفت وتباعدت عن المعصية؛ لأنك تعبد الله رغبة ورهبة.

وقد جعل الله تعالى العبودية وصفًا لأكمل خلقه وأحبهم إليه، وهم أنبياؤه ورسله، كما جعلها وصفًا لمن اصطفاه من المؤمنين، فوصف بها نبيه محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل خلقه وخاتم رسله في أفضل مقاماته، وهو إنزال الكتاب عليه ﴿أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [سورة الكهف: آية ١] ووصف بها الصالحين من المؤمنين ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [سورة الفرقان: آية ٦٣] وجعل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إحسان العبودية أعلى مراتب الدين «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ**

كَأَنَّكَ تَرَاهُ»[1].

ليست العبادة عناء ومشقة كي يستريح منها المسلم، بل هي محبة وتعظيم لله تعالى، يبعث عليها صادق الرغبة إلى الله، ويهيج إليها عظيم الشوق إليه سبحانه، يتذلل المسلم بها بين يدي ربه ومولاه، يناديه ويناجيه مقبلًا إليه، راجيًا رحمته، سائلًا فضله وكرمه وقربه.

إن محبته سبحانه توجب عبوديته وطاعته، وتتبع مرضاته واستفراغ الجهد في التعبد له، والإنابة إليه، وهذا الباعث أكمل بواعث العبودية وأقواها، حتى لو فرض عدم وجود الأمر والنهي والثواب والعقاب.

وعلة الخلق هي العبادة، وهي المراد الأول، لتسعدنا وتنظم حركتنا، فهو سبحانه خلق ليُعبد، كل الخلق عبيد تسري عليهم أمور قهرية، فالعبيد متساوون فيما يُقهرون عليه، لكن مراده الشرعي أن يكون له عباد، ويدخل في العباد كل من يتنازل عن

(١) جزء من حديث جبريل المشهور، أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الإسلام والإيمان والإحسان(رقم ٥٠) ومسلم في كتاب الإيمان، باب: الإيمان والإسلام والإحسان (رقم ٩).

اختيـاره في الحياة لمراد ربه في التكليف، فيدخل ضمن العباد، وهـم من يأتون بالحـب وهو مختارون ﴿عِبَدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [سـورة الزخـرف: آية ١٩] ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [سـورة الزمر: آية ٥٣] ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٤٠﴾ [سورة الحجر: آية ٤٠].

فـالله سـبحانه يُعبَـد ويُحمَـد ويُحَـب لأنـه أهـل لذلـك ومستحقه، بل ما يستحقه سبحانه من عباده أمرٌ لا تناله قدرتهم ولا إرادتهم ولا تتصوره عقولهم، ولا يمكن أحدًا من خلقه قط أن يعبده حق عبادته، ولا يوفيه حقه من المحبة والحمد، ولهذا قال أفضل خلقـه وأكملهم وأعرفهم به وأحبهم إليه وأطوعهم لـه: «**لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْـكَ**»(١) وأخبر أن عمله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يسـتقل بالنجاة فقال: «**لَنْ يُدْخِلَ أَحَـدًا عَمَلُهُ الجَنَّةَ**» قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**لاَ، وَلاَ أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ**»(٢) عليه صلوات الله وسـلامه عدد ما خلق في السماء،

(١) جـزء مـن حديـث أخرجه مسـلم في كتاب الصـلاة، باب: ما يقـال في الركوع والسجود (رقم ٤٨٦).

(٢) أخرجـه البخاري في كتاب الرقـاق، باب: القصد والمداومة على العمل (رقم ٦٤٦٣) ومسلم في كتاب صفات المنافقين، باب: لن يدخل أحد الجنة بعمله (رقم ٢٨١٦).

وعدد ما خلق في الأرض، وعدد ما بينهما، وعدد ما هو خالق.

وفي الحديث المرفوع المشهور أن مِن الملائكة مَن هو ساجد لله لا يرفع رأسه منذ خلق، ومنهم راكع لا يرفع رأسه من الركوع منذ خلق إلى يوم القيامة، وأنهم يقولون يوم القيامة: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك[1].

فالآيات الثلاث قبل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هي أصول العبادة بكمال المحبة والحمد، وتقتضي الثناء والشكر، ولا يكون إلا على النعمة؛ لأنه رب العالمين، وهذا يقتضي كمال محبته، وجميع العالمين وسعتهم رحمته ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] وحمده دليل محبته، فكل الكائنات محبة له، ولو رأيت في كل عوالم الأحياء لرأيت محبة الله في أرجاء هذا الكون ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [سورة فصلت: آية ١١] وهما جماد والطاعة تقتضي المحبة.

ومن مستلزمات الحب التعبدي تيقن العبد أن ليس بمقدوره أن يشكر الله حق شكره على هذه النعم الدينية، من الإيمان والعلم والتقوى، والنعم الدنيوية، من الصحة والمال،

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤٥٦٣).

إضافة إلى النعم الأخروية والجزاء الجزيل على العمل القليل في العمر القصير ومضاعفة الحسنات إلى عشرات أضعافها، فكيف له أن يستوفي حق الشكر! فالشكر هو نفسه نعمة من الله تستوجب الشكر «سُبْحَانَكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ»(١).

كل محب يصل إلى قلبه من محبوبه خاطرًا رجاء أن يقبل، أن يلتفت، أن يقرب، وهذا هو الطمع والرجاء، وهناك خاطر خوف ألا ينظر، ألا يقبل، فإذا حصل كمال المحبة وكمال الرجاء وكمال الخوف تحققت أعلى مقامات العبودية، والكمالات تتفاوت على قدر تفاوت العلم بالمحبوب، فأصبح العلم بالمحبوب أعلى درجات العبادة ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [سورة آل عمران: آية ١٨] فجعلهم مع الملائكة لعظم قدرهم.

فإذا خفت من يوم الدين انطلقت لعبادة رب العالمين ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ [سورة الإنسان: آية ١٠-١١] لأنه رب العالمين، لأنه الرحمن، لأنه ملك يوم

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود (رقم ٤٨٦).

الدين، ولأنهم قالوا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فالعبادة مبنية على المحبة، والمحبة على قدر الإحسان، فمن أحسن إليكم أكثر من الله! وما بكم من نعمة فمن الله.

هو قادر سبحانه أن تصبح العبادة بالإكراه ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾﴾ [سورة الشعراء: آية ٤] لكن العبودية تأتي بالحب لا بالإكراه، فمن عصَوا وكفروا لم يخرجوا عن مراد الله؛ لأنه أعطاهم الاختيار، لكنهم خرجوا عن محبوبه العبادي ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [سورة الحجرات: آية ١٣] وأعلى من حقق درجات التقى والعبودية (بمعنى عباد) هم الأنبياء، وسيدهم المصطفى محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث هو في القمة، فهو الذي حقق أسمى درجات العبودية المرادة لله كما يحبها الله وفي قوله: (نعبد).

فحقيقة عبد الله هو خضوع يحررك أن تخضع لسواه، فهي عبودية أورثت حرية، فلا تلتفت لسواه من خلقه مهما سمت مراتبهم ومكانتهم الدنيوية ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [سورة الفرقان: آية ٥٨] فإياك نعبد ونعتز بالخضوع لهذا الإله المحمود بكماله وجلاله، فهي في الحقيقة رحمة لهم من

ذل عبوديتهم لسواه (حسب نفسي عزًّا بأني عبد يحتفي بي بلا مواعيد ربي .... هو في قدسه الأعز ولكن أنا ألقاه متى وأين أحب).

ومن لطائف صيغة الجمع في (نعبد) فيه معنى (هب المسيئين منا للمحسنين) إذا رأيت أحد المسلمين أعبد منك فافرح أنك تدخل معه في الزمرة «**هُمُ الْقَوْمُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ**»(١).

من صحَّ له العلم بمولاه لا يصح في حقِّه ركونٌ إلى دنياه، بل تسير به هِمَّتُه في الطريق الموصلة لغايته مِن رضا ربِّه وجنته، فيقطعها العبد بالعبادة، ومنه سبحانه الإعانة؛ قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ العبادة تُبرئ من الشرك، والاستعانة تبرئ من الحول والقوة، وتفويض إلى الله عَزَّوَجَلَّ وإلى هذين المعنيين يرجع الدين كلُّه، وهذا المعنى في غير آية من القرآن، كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب: فضل ذكر الله (رقم ٦٤٠٨) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب: فضل مجالس الذكر (رقم ٢٦٨٩).

﴿رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٢٣﴾ [سورة هود: آية ١٢٣] ﴿قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَا﴾ [سورة الملك: آية ٢٩] ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩﴾ [سورة المزمل: آية ٩] لذا قال بعض السلف: الفاتحة سرُّ القرآن، وسرُّها هذه الكلمة.

جاءت ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾ بما بين العبد وربه، وحسن أن تأتي مباشرة بعدما ذكر الله تعالى يوم الجزاء الذي سيجازي كل إنسان فيه على كل عمل، دل عباده على ما خلقهم لأجله وسيجازيهم عليه، وهو عبادته، أي نخصك وحدك بالطاعة والعبادة والاستعانة.

﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾ نستعين بك في إخلاص العبودية لك، ولو قام بعد ذلك طغيان يحول بيننا وبينها من داخل أنفسنا الأمارة بالسوء أو من خارجها، فيعلمنا الله ألا نهين، بل نستعين به حين ذلك، وأن نعد لصولة الباطل ما استطعنا من أسباب ظاهرة، وتكون الاستعانة بالله، فهو يجيب دعوة المضطر الذي استنفذ كل الأسباب التي أمدها به.

وتقديم المعبود المستعان ﴿إِيَّاكَ﴾ فيه الأدب مع الله بتقديم اسمه على فعل المخلوقين، وتكرار ﴿إِيَّاكَ﴾ للدلالة

على قوة ووجوب التخصيص، وهذا مناسب لحال العبد مع ربه، فهو واقف بين يديه يدعوه بالضراعة والإخبات في الصلاة، ويقر بالضراعة في المناجاة، فناسب حال الشاهد لا حال الغائب، نخصك وحدك بالعبادة والاستعانة بما يفيد الحصر، فكأنه يقول: نعبدك، ولا نعبد غيرك، ونستعين بك، ولا نستعين بغيرك.

لك يا ربنا وحدك نخشع ونذل ونستكين، فقد توليتنا برعايتك وغمرتنا برحمتك، فنحن نخصك بطلب الإعانة على طاعتك وعلى أمورنا كلها، ولا نتوجه بهذا الطلب إلى أحد سواك، فأنت المستحق للعبادة، وأنت القدير على كل شيء، والعليم ببواطن الأمور وظواهرها، لا تخفى عليك طوية، ولا تتوارى عنك نية.

وتأمل أيضًا قال (نعبد) ولم يقل (أعبد) وفي هذا تواضع وافتقار وانكسار، أي أنني واحد من عبيدك، فلست أهلاً أن أتقدم إلى جنابك العظيم وحدي، بل أضم نفسي إلى سائر عبيدك، فعسى أن أكون مقبول العبادة مجاب الدعوة. ولو قال (إياك أعبد) لكان معظمًا لنفسه، قد ولج باب الكبرياء، كأنه وحيد الميدان.

وتعليم الله تعالى للمؤمنين هذه الضراعة بصيغة الجمع أرجى للقبول والبركة والإجابة، فالعابد قاصر بنفسه، فيخاطب ربه بلسان جماعة العابدين، فحتى لو كان المرء يصلي وحيدًا لا تصح صلاته بأن يقول «إياك» أو «اهدني» فلا بد أن يقول: ﴿ٱهۡدِنَا﴾ و﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ وكلها بصيغة الجمع، حتى يعرف المرء أنه ضمن أمة واحدة وأنه ليس وحيدًا في هذا الكون، وفيها تذكير بأن هذه الدين هو الرابطه الوطيدة بين المسلمين على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وتباعد أقطارهم وبلادهم.

وكرر الضمير ﴿إِيَّاكَ﴾ مرة أخرى للاهتمام، ودلالة على تعلق هذه الأمور بكل واحد من الفعلين، ففي إعادة الضمير من قوة الاقتضاء لذلك ما ليس في حذفه، فإذا قلت لملك مثلًا: إياك أحب وإياك أخاف، كان فيه من اختصاص الحب والخوف بذاته والاهتمام بذكره ما ليس في قولك: إياك أحب وأخاف.

وقدمت العبادة على الاستعانة، لكون الأولى وسيلة إلى الثانية، وتقديم الوسائل سبب في تحصيل المطالب، وليدل

على أنهم لا يستقلون بإقامة العبادات، بل إن عون الله هو الذى ييسر لهم أداءها. ولم يذكر المستعان عليه من الأعمال، ليشمل الطلب كل ما تتجه إليه نفس الإنسان من الأعمال الصالحة.

وتقديم العبادة على الاستعانة من باب تقديم العام على الخاص، ومن تقديم حقه تعالى على حق عبده، ولأن العبادة هي المقصود الأعظم، وهي الغاية من الخلق ومن العبد، والاستعانة وسيلة إليها، وأن من قدم حق الله على كل شيء وسعى إلى الخير وحقق العباده لله وحده فإن الله تعالى يحقق له العون والولاية، وييسره لليسرى في دنياه وأخراه، ويتولاه بعطفه ولطفه، فعطفه يقيه ما يحذره، ولطفه يرضيه بما يقدره، وهذا يدل أن الدعاء بعد العبادة مستحب.

فـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ متعلق بألوهيته واسمه الجليل (الله)

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ تتعلق بربوبيته واسمه الجليل (الرب) فقدم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ كما تقدم اسم (الله) على (الرب) في أول السورة ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قسم الرب، وهو من القسم الأول في السورة الذي فيه الثناء على الله ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ قسم العبد، فكان من القسم الثالث

الذي هو له ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾ والعبادة لا تكون إلا من مخلص، والاستعانة تكون من مخلص وغير مخلص، ولأن العبادة شكر نعمته عليك والاستعانة توفيقه لك.

وسر الجمع بين العبادة والاستعانة أنه قطع لمدخل الشرك في العبادة، وهو الاستعانه بغير الله، وهو الباب الذي وقع فيه كل مشرك بالله، فالشرك في الألوهية أخطر ألوان الشرك على الإطلاق؛ لأن قضية الربوبية، وهي الاعتراف بالله عَزَّوَجَلَّ أمر تقر به الفطر والنفوس ولا يحتاج إلى كبير تقرير، وموضوع الأسماء والصفات أيضًا حصل فيه انحراف، لكنه لا يقاس بالانحراف الذي حصل في موضوع الشرك في توحيد الألوهية؛ ولهذا ينبغي أن نعتني كثيرًا بدعوة الناس إلى توحيد الألوهية لأنه أصل الدين وأساس التوحيد.

والعبودية مقام عظيم يشرف به الإنسان، فقد سمى الله تعالى رسوله ﴿عَبۡدِهِ﴾ في أشرف مقاماته ﴿أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [سورة الكهف: آية ١] ﴿أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا﴾ [سورة الإسراء: آية ١] وهي تعني التحرر المطلق من كل عبودية لغير الله تعالى.

العبادة يتحقق فيها التوازن، حيث يعمل الإنسان لآخرته ويعمل لدنياه وهو مرتبط القلب بالله ومخلص له، فيثاب على أعماله الدنيوية المحضة إذا قصد بها التقرب إلى الله، فيتربى على القوة ومقاومة الأهواء، فإذا زكت النفس وسمت وتطهرت فاضت بالخير والتضحية والبذل على من حولها، فلا تتحول العبادة إلى عادة بل يتحقق المضمون الاجتماعي للعبادة.

اعلم أن العبادة تكون عبادة إذا كانت مأخوذة من الوحيين مقصودًا بها وجه الله وحده، أي الإخلاص ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ والمتابعة لرسوله ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ بهذين الأمرين تكون عبادة، كما قال الحق عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٧٧﴾ [الحج: ٧٧].

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ **اشتملت على نوْعَي التوحيد:** وهما توحيدُ الربوبيَّة وتوحيد الألوهيَّة، وتضمَّن التعبدَ باسم الرب واسم الله، فهو يُعبد بألوهيته ويُستعان بربوبيته، ويهدي إلى الصراط المستقيم برحمته، فكان أول

السورة ذكر اسمه (الله والرب والرحمن) تطابقًا لأجل الطالب من عبادته وإعانته وهدايتـه، وهو المنفرد بإعطاء ذلك كله، لا يُعين على عبادته سواه، ولا يهدي سواه.

من أراد السعادة الحقيقية فليلزم عتبة العبودية ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً﴾ [سورة النحل: آية ٩٧] فمن أراد السعادة فعليه بكثرة العبادة فهي أقرب طريق إلى الله وإلى حب الله لك، فأما أنك تحب الله فهذا أمر فطري طبعي، لكن أن يحبك الله، يحبك المالك الخالق الغني عنك، فهذا هو أسمى المقاصد وأعلاها، فحافظ على الفرائض أكثر من النوافل، افهم شمولية العبادة لتجعل كل شيء في حياتك عبادة ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [سورة الأنعام: آية ١٦٢] ابتسامتك صدقة، الكلمة الطيبة صدقة، الأذى تميطه عن الطريق صدقة ، الشهوة تقضيها في الحلال تؤجر عليها، جماع الأمر إنما هو بتكميل عبودية الله في الظاهر والباطن، فتكون حركات نفسه وجسمه كلها في محبوبات الله، وكمال عبودية العبد موافقته لربه في محبة ما أحبه، وبذل الجهد في فعله، وموافقته في كراهة ما كرهه وبذل الجهد في

تركه، وهذا إنما يكون للنفوس المطمئنة.

والعبادة والاستعانة متلازمتان لا تتحقق إحداهما دون الأخرى، فلا تتحقق العبادة دون عون الله للعبد، ولا يحصل العون من الله دون عبادته، فبهما معًا يتحقق الإيمان وكمال الطاعة، فالعبادة الخالصة براءة من الشرك، والاستعانة بالله دون سواه براءة من الحول والقوة وتمام التفويض إليه عَزَّوَجَلَّ فلا سبيل إلى النجاة إلا بالقيام بهما، وجاءت الاستعانة بعد العبادة مع دخولها فيها لاحتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله تعالى، فإنه إن لم يعنه الله لم يحصل له ما يريده من فعل الأوامر واجتناب النواهي، فبهما تتحق السعادة الأبدية والنجاة من جميع الشرور.

حقيقةُ الاستعانة هي الثقة بالله والاعتماد عليه، ومَنشأ ذلك معرفة القلب بمولاه، وأنه سبحانه المتفرِّد بالخَلق والتدبير، والضُّر والنفْع، والعطاء والمنع، وأنَّه ما شاءَه كان وإنْ لم يشأ الناس، وما لم يشأْ لم يكنْ وإنْ شاءَه الناس، فلا يعتمد إلا عليه ولا يفوِّض أمرَه إلا إليه، ولا يطمئن قلبُه إلا به، فحال المستعين كحال الطفل مع أبويه فيما يرجوه أو يخافه،

لا تجد قلبَه يلتفتُ إلى غير أبويه، وتراه كاملَ الثقة والاعتماد عليهما، فهذه حال المتوكِّل، ومَن كان هكذا مع الله فالله كافيه؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [سورة الطلاق: آية ٣] أي: كافيه.

التوكل والاستعانة هو نصف الدين، والنصف الثاني الإنابة والعبادة، والحياة كلها ما هي إلا عبادة واستعانة، فكل ما يواجهه العبد في حياته إما أن يدعوه إلى خضوع واستكانة، وإما أن يدعوه إلى سؤال واستعانة، وأنفعها طلب العون على مرضاة الله «**اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»(١).

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ يفهم المؤمن منها أن الدنيا محكومة بقانون الأسباب، والله ربه قد خلق الأسباب المحسوسة المادية في هذه الدنيا، وهي كلها لتكون له صديقًا مساعدًا متعاونًا، لذا فإن الأوهام لن تملأ عقله أو قلبه تجاه القوى المحسوسة وغير المحسوسة، ولن تقوم بينه وبينها

(١) جزء من حديث أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب: في الاستغفار (رقم ١٥٢٢) والنسائي في كتاب السهو (رقم ١٣٠٣).

المخـاوف لأنه يؤمـن بالله وحده، ويعبد الله وحده، ويسـتعين بالله وحده.

وهذه القوى كلها من خلق ربه ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ [سورة الفلق: آية ٢] وهو يتأملها ويألفها ويتعرف أسـرارها ويستعين بالله عليها أو يستعيذ به من شرورها، فتبذل له معونتها، وتكشف له عن أسرارها فيعيش معها في كون مأنوس صديق.

ومـع أن الاسـتعانة هي نوع مـن العبـادة، والدعاء أخص أحوالها، إلا أن المؤمن يعلم يقينًا أنه لن يعبده إلا بعد أن يعينه فيدعوه بذلك ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ هنا قد غمرتك السكينة والطمأنية بأنك قد ألقيت له مقاليد نفسك ليعينك على الخير، و﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هـي الغاية، فلن تسـتطيع أن تعبـد ربك إلا به، وهنا تأتي الوسيلة ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ للحصـر والتخصيـص في أصـل توحيـد الألوهيـة وإفـراد الله بالعبادة، لأنه أصـل الدين وحق لله تعالى علـى العبد، فيقر بـه **«هذا بيني وبين عبدي»**[1] ثم هو يسـتعين

(١) جـزء مـن حديث «قسـمت الصلاة بينـي وبين عبدي نصفيـن» الذي أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (رقم ٣٩٥).

بـالله تعالى على ذلك، إذ لا قوام لـه، حتى على التوحيد فضلًا عن غيره من أمور الدنيا والآخرة، إلا بعون الله.

ولمـا كان العبـد ضعيفًا فقيـرًا احتاج أن يسـأل الله تعالى العـون، قـال (إيـاك نسـتعين) والاسـتعانة هنا علـى إطلاقها، فنسـتعين بك يـا الله على كل شـيء، وإن كان أعظم مقاصدها همـا العـون علـى العبادة، وكأنـه يقول: نحـن يا ربنـا نريد أن نطيعـك ونعبدك ونتقـرب إليك، فـإن لم تعن علـى ذلك فقد خسرنا.

و يقـول شـيخ الإسـلام ابن تيميـة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (تأملـت أنفع الدعاء فإذا هو سـؤال العون على مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾) ولهذا روي أن حملة العرش إنمـا أطاقوا حمل العـرش بقولهم (لا حـول ولا قوة إلا بالله) وقد ثبـت في الصحيحين أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قـال إنها: «**كَنْزٌ مِـنْ كُنُـوزِ الجَنَّةِ**»[1] وكمـا أن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تبرؤ من الشـرك

(١) جـزء من حديث أخرجـه البخاري في كتاب الغزوات، بـاب: غزوة خيبر (رقم ٤٢٠٥) ومسـلم في كتـاب الذكر والدعـاء، باب: اسـتحباب خفض الصوت بالذكر (رقم ٢٧٠٤).

فـإن ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ تبرؤ من الحول والطول والقوة، وتفويض لله للواحد القهار.

۞ والاستعانه تجمع أصلين:

* **أولًا:** الثقة بالله والتعلق بقدرته ورحمته.
* **ثانيًا:** صدق التوكل واليقين والاعتماد عليه، وبها يكون التفات القلب إلى الله وحده لا إلى الأسباب، وكأنها لا شيء لذاتها إن لم ينفع الله بها، فالاستعانة هي الاعتماد على الله تعالى في جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة به في تحصيل ذلك.

فمـا أحوجنـا إلـى عقيدة الاسـتعانة بـالله والتـوكل عليه تنغرس في الأذهان وتتأصل في الجنان، فمن توكل على الله حق توكله كفاه، ومن استعان به أعانه الله ووقاه.

من المعين إذا ادلهم الخطب وحل الكرب وعم الجدب؟ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

مـن المعين إذا ضعف الإيمان وكثرت فتن الزمان وتفرق الإخوان؟ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

مـن المعين عنـد فقد الأحبـاب وموت الأصحـاب وقع المصاب؟ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

مـن المعين إذا قسـت القلوب وكثـرت الذنوب وظهرت العيوب؟ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

مـن المعيـن إذا عـم الكـبر وكثر السـحر ونافق الشـعر؟ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

من المعين إذا كثر إفسـاد ذات البين وكثر الدين وصوبت العين؟ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

هـي تحقيق لقولك (لا حول ولا قـوة إلا بالله) ففيها تبرؤ من الحول والقوة إلا باذن الله.

و﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هـي عـلاج للريـاء لأنهـا تذكيـر بمقـام الإخلاص ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ هي علاج للكبر؛ لأن فيها تذكيرًا بحاجة العبد إلى ربه وافتقاره إليه، لأن في قوله ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ تحقيق لكلمة (لا حول ولا قوة إلا بالله).

ومـن أخطر أمـراض القلـوب مرضان يعرضـان للقلب، فيُتْلِفَانه ويُفسدانه ويُذهبان الإيمان منه؛ الرياء والكِبر، فلو تدبَّر

المرائي حقيقة العبوديَّة ومقام الألوهيَّة لما التفتَ إلى البشر؛ فما لهم من الأمر شيء، ولو نظَرَ المتكبِّر لحقيقة الاستعانة لرأى صِغر نفسه وعجزها وضَعفها وحاجتها، فدواء الرياء ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ودواء الكبر ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لأن من عوفي من مرض الرياء ومرض الكبر والعجب ومن مرض الجهل والضلال بـ ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ عوفي من أمراضه وأسقامه وتمت عليه النعمة.

والدين ملخص في قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فيها أركان الإسلام من عبادات القلوب والجوارح كلها، وفي جميع انفعالات الحياة وحركاتها نحتاج إلى ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فما خرج شيء عن هذه الآية، فهو يستشعر القول: إني أتقرب إليك بالعبادات، وأحتاج إلى عونك يا ربي في قضاء حوائجي كلها وأهمها عبادتي لك.

فالدين والدنيا مجموعان في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ فالصلاة تعبد تحتاج لأن تعان على أدائها، والصيام تعبد تحتاج لأن تعان على القيام به، حتى أمور الدنيا المجردة تحتاج إلى الإعانة، وإذا نويت أن تجعلها (إياك نعبد)

بالتقرب إلى الله بها ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ وإذا استعنت بالله على قضائها.

وكانت جماليات ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ في أهم مسألة يستعان بالله على تحقيقها: اهدني يارب إلى الصراط المستقيم، صراط الإسلام والقرآن والالتزام بمنهج محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في العبادات والمعاملات في كل نفس من أنفاس عمري في دقائق الحياة وتفاصيلها.

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ **لا أستعين إلا بك،** ولا ألتجئ في كشف كربتي وإجابة دعوتي إلا إليك؛ لأنك تطلب من عبادك أن يسألوك، فأنت قريب، ياربي أعني في إجابة دعائي، ياربي لي إليك حاجة هي أعظم حاجة، هي الهداية، اقضها، يا ربي دلني على الدين القويم، ثبتني عليه، بصرني فيه، علمني كلياته وقواعده وتفاصيله في كل حركة وسكنه، فهو الإسلام النعمة الحقيقية، وهي الاستقامة على الصراط مع المنعم عليهم، ياربي إني أطلب العون منك يا الله ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ فاهدنا.

فالعبادة نُزهة القاصدين، وأنس المحبِّين، وبهجة العارفين، بها قُرَّةُ أعينهم، وفيها مَسرة قلوبهم، ومنها راحة أرواحهم، وإليه أشارَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «**أَرِحْنَا بِهَا يَا بِلَالُ**»(١).

والاستعانة إجلالك لنعوت كرمه، ونزولك بساحة جوده، وتسليمك إلى يد حُكْمه، فتقصده بأملٍ فسيح، وتخطو إليه بخطو وسيع، فوجب مِن ذلك على المعرِضين عن مقام العبادة والاستعانة المنشغلين بسفاسف الدنيا الخذلان. اللهم إنا نستعينك ونستهديك، ونؤمن بك ونتوكل عليك، ونستغفرك ونتوب إليك.

ومن هنا تظهر هدايات الوصول في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ حيث بها صلاح الإرادة والعمل، فتتمحَّص عند العبد غايته في حياته، وهي العبادة، فلا ينشغل بغيرها، والوسيلة الموصِّلة إليها، وهي الاستعانة، فلا يتوسَّل بما سواها.

في قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إثبات النبوة، فإن طريق التعبد لا يعرف إلا عن طريق رسله، في قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إيمان بالقدر، لأن العبد يطلب العون من الله القادر على كل شيء، المتصرف كيف يشاء.

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب: في صلاة العتمة (رقم ٤٩٨٥).

وعطف ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يفيد أن من سعى للخير فحقق العبادة لله، فإن الله يحقق له العون، لكن درجات العون والولاية تتفاوت بحسب تفاوت الناس في العبادة، فكلما كان المرء أكثر تعبدًا لله حصل له من العون والتأييد ما هو أكثر، فإذا التزمت بعبوديته ودخلت تحت رقها أعانك عليها، وكلما كان العبد أتم عبودية كانت الإعانة من الله له أعظم، ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ له ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ به، وما له متعلق بمحبته ورضاه وما به متعلق بمشيئته والكون كله متعلق بمشيئته، فتقدم ما له على ما يكون به .

ومن كان حالُه بين العبادة والاستعانة، فهذا مظنَّة التوفيق والهداية ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [سورة هود: آية ٨٨] ومن هنا كانتْ نصيحة المحب ﷺ لحبيبه معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إِنِّي لَأُحِبُّكَ يَا مُعَاذُ، فَلَا تَدَعْ أن تقولَ دُبرَ كلِّ صلاة: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»[1] نصيحة بأنفع الدعاء، مما يحتاجه العبد في جميع أحواله.

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب: في الاستغفار (رقم ١٥٢٢) والنسائي في كتاب السهو (رقم ١٣٠٣).

القسم الثالث

الدعاء

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ ﴾

سؤال الهداية إلى أعظم المطالب وأشرف الرغائب.

هذا هو القسم الثالث والأخير من الفاتحة، فلما ذُكِرَت العبادة والاستعانة بالله تعالى وحده جاء سؤال الهداية إلى الطريق الواضح، فبالهداية إليه تصح العبادة، فمن لم يهتد إلى السبيل الموصلة لمقصوده لا يصحُّ له بلوغ مقصده.

والصراط هو السبيل، وهو الطريق السهل، والصراط في اللغة: هو الطريق بخمسة أوصاف: مستقيم، سهل، مسلوك، واسع، فيه سهولة ويسر، فالطريق المستقيم هو أوسع طريق، والمستقيم هو أقصر وأقرب خط يصل بين نقطتين، وهو المعتدل المستوي لا اعوجاج فيه ولا التواء.

والصراط هو الطريق الواضح شديد الوضوح، والسبيل هو الطريق المنبثقة عنها، فالسبل هي الطرق المتفرعة عن الصراط؛ سبل الخير وسبل الشر، وأصلها (سراط) بالسين، من: سرط؛ أي ابتلع، لأنه يبتلع السالكين فيه.

وهنا فائدة: استقى الإنجليز من اللغة العربية كثيرًا،

فيقولـون (سـتريت straight) مسـتقيم و(سـتريت street) وهـو الطريـق بالإنجليزية، لأن اللغة العربيـة هي أقدم اللغات الموجودة المسـتعملة، واللغات الأخرى تبع لها، وليس هناك لغة أقدم منها.

ولذلـك لا يُجمع الصراط في القرآن، ولم يرد في القرآن إلا مفـردًا؛ لأنه يُراد به الإسـلام ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [سـورة الأنعـام: آية ١٥٣] وهذا مَثَلُ دين الإسـلام في سـائر الأديان؛ فإنـه يُوصِل إلى الله وإلى داره وجواره، مع سهولته وسَعَته، وبقيةُ الطرق وإن كانت كثيرةً فإنَّها كلَّها مع ضيقِها وعُسرِها لا تُوصِل إلى الله، بل تقطَعُ عنه وتُوصِل إلى دار سَخَطه وغضبه ومجاورةِ أعدائه.

فلا سـبيل إلى سعادتك إلا باستقامتك على منهج الله، ولا سبيل لاستقامتك إلا بهدايتك، فالهداية إلى الصراط المستقيم نعمـة عظيمـة ومنة جليلـة، في الهدايـة تجد النفـوس راحتها، وبالهداية تجد القلوب سـعادتها وأنسـها، فهـي تجمع مصالح الدين والدنيا والآخرة، فهي مطلب الجميع، وكلنا محتاج إليها في كل حيـن، خاصة في زمن صعب تكثر فيه الفتن والضلالات

والانحرافات. يا ربِّ، دُلَّني على ما تحبُّ وترضى في كلِّ ما يواجهني من أمور هذه الحياة، ثمَّ قوِّني وأعنِّي على العمل بهذا الَّذي دللتني عليه.

الهداية هي الحياة الطيبة ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [سورة طه: آية ١٢٤] ومن معاني اهدنا: مِلْ بنا إليك، وخُذْنا لك، وكنْ دليلنا، ويَسِّرْ إليك سبيلَنا، علمنا وأرشدنا ووفقنا، وحبب إلينا العلم النافع لنعبدك بما شرعت، ثبتنا حتى لا ننحرف ونزيغ ونضل بأهوائنا، فقوِّ ربنا هدايتنا وزد إيماننا.

ولتحقيق الهداية لابد من معرفة الحكم، وماذا يريد الله ورسوله منه، والعمل بهذا الحكم عن طريق وجود إيمان قوي في قلب العبد يحدوه إلى العمل، فحين يقول العبد مناديًا ربه قائلًا: يا ربنا، دلنا على ما تحب وترضى في كل ما يواجهنا من أمور الحياة، ثم قوّنا وأعنَّا على العمل بهذا الذي عرفناه ودللتنا عليه وعلمتنا إياه.

والهداية درجاتٌ، والمهتدون طبقاتٌ، منهم من يبلغ درجة الصِّديقيَّة، ومنهم من هم دون ذلك، وبحسب هدايتهم

يكون سيرهم على الصِّراط، فإنَّ لله تعالى صراطين: صراطًا في الدُّنيا، وصراطًا في الآخرة، وسيرك على الصِّراط الأخروي، وهو الجسر المنصوب على متن جهنَّم يمشي النَّاس على قدر أعمالهم، بقدر سيرك على الصِّراط الدُّنيوي، فالصِّراط الدُّنيوي هو طريق الله بطاعته فيما أمر واجتناب ما نهى عنه، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سورة الشورى: آية ٥٢-٥٣].

والعبد أحوجُ ما يكون إلى هذه الهداية وإلا انقطع، فهو محتاجٌ إلى هداية الله ليعلمَ الحقَّ ويدركَه، ثم ليحببه فيه وليقدره عليه، ثم ليجعلَه مُريدًا له، ثم ليجعلَه فاعلًا له، ثم ليثبِّتَه عليه ويستمر به عليه، ثم ليصرف عنه الموانع والعوارض، كلُّ هذا يحتاجه المرءُ ليهتدي لطريق الحقِّ إجمالًا، ثم بعد ذلك يحتاج إلى هداية أخصَّ من الأولى؛ ليعرفَ تفاصيله وتفصيل منازله، ثم هو في حاجة إلى أن يهديه مولاه ليبتعدَ عن طريق المنحرفين عن الحقِّ، طريق أهل العضب الذين عدلوا عن اتِّباع الحقِّ قصدًا وعنادًا، وطريق أهل الضلال الذين عدلوا عنه جَهْلًا وضلالًا، فمَن هداه الله إلى ذلك فقد هُدي إلى

الصِّـراط المسـتقيم الواحـد الذي سـارَ عليه جميـعُ أنبياء الله ورُسله وأتْباعهم من الصِّدِّيقِين والشُّهَداء والصالحين.

و بعد التوسـل إلـى الله تعالى بحمـد الله وتمجيده والثناء عليه تعالى بأسـمائه وصفاته، والتوسل إليه بعبوديته وتوحيده، وبعـد الاعـتراف بالعبوديـة لـه وتوحيـده والتبرؤ مـن الحول والقـوة إلا بـه سـبحانه - جاء سـؤال أهـم المطالـب وأنجح الرغائـب ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ ونيلـه أشـرف المواهب وأجـل الأعطيـات، كيف وهو سـؤال الله الهدايـة! وهذا دليل على أن كتاب الله تعالى كتاب هداية لمن يطلبها.

والهدايـة أجمل ما يطلب وأشـرف ما يوهب، لذا أرشـد الله عبـادَه إلى وسـيلتين لا يكاد يُردُّ معهما دعاء؛ التوسُّـل إليه بأسـمائه وصفاته، والتوسُّـل إليـه بعبادته، يأتي طلـب الهداية ويتفـاوت المؤمنون في عمق وإخـلاص تحقيقهم ويقينهم من التوسـلَين المذكورَيـن، ومن ثم تتفاوت اسـتجابة الله لهم كل بحسـبه، فإذا حققـت العبادة بالحمـد والتوحيد والاسـتجابة له بالاسـتعانة فاطلب الهداية للاسـتقامة حتـى تصل إلى تمام النعمة في الجنة.

ووصفه بـ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ إشارة إلى قربه ويسره ووضوحه وحصول الأمن فيه، بخلاف المعوج، وهذا دلالة على كمال الإسلام وسهولته واليسر فيه، وإنه أقرب وأيسر طرق النجاة، موصل إلى المقصود، وهو مستقيم فيوصل مباشرة، فهو الصراط الذي عليه ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦﴾ [سورة هود: آية ٥٦] وهو الصراط المؤدي إليه ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [سورة النحل: آية ٩] أي السبيل القاصد المعتدل.

و﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ هو دينه تعالى الذى ارتضاه لخلقه، لا ترى فيه عنتًا ولا مشقة، يسلكه الصالحون، ومن صبر عليه وصل إلى مقصوده من رضا الله والجنه، وحقيقته إفراد الله بالعبادة وإفراد رسوله بالطاعة (لا إله إلا الله محمد رسول الله).

وحقيقة الهداية أن تسأل الله أن يدلك ويعلمك ويبصرك لكل ما يحب ويرضى في كل ما يواجهك في أمور هذه الحياة، ثم هو عَزَّوَجَلَّ يحببك في العمل الصالح الذي يرضيه عنك، ويقويك على العمل بما علمت على أدائه على الوجه الذي يرضاه جَلَّوَعَلَا وهذا هو الشرط الثاني لتحقيق العبودية، وهو

المتابعة، لأن الله لا يقبل العمل إلا إذا كان موافقًا للصراط المستقيم، وهو صراط الذي أنعم الله عليهم، وأولهم الأنبياء.

والهداية نوعان:

هداية البيان والتعليم والدلالة والإرشاد، وهذه الهداية عامة، فالله تعالى هاد للعباد، أي مبين لهم ومرشد ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [سورة فصلت: آية ١٧] ومن دقائق تلك الهداية في الأمور المختلف فيها «**اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ**»(١) والرسل هداة إلى الله تعالى.

وهداية التوفيق والإلهام وشرح الصدر للقبول والعمل، وهي فيض وإنعام من الله عَزَّوَجَلَّ وخاصة به ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [سورة القصص: آية ٥٦] وهي قبول القلب للحق، وانشراحه به، ومحبته له، والعمل به.

ودعاء طلب الهداية إثبات نبوة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **وضرورة اتباعه،** فإذا قام بها حق قيامها بطاعة الرسول فيما أمر كان جزاؤه من جنس العمل ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾

(١) جزء من دعاء الاستفتاح في قيام الليل، أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه (رقم ٧٧٠).

[سورة يونس: آية ٩] فمن اهتدى بدلالة وإرشاد النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى معرفة الحق، واهتدى بتوفيق الله إلى العمل والثبات (وفقني واهدني إلى ما تحب وترضي) فإن الله يمن عليه بتمام الهداية بأن يشاهد تقصيره وذنبه ليتوب منه ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [سورة النور: آية ٣١] وهكذا الرسل جميعًا كلهم بعثوا ليهدوا ويدعوا الناس إلى ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ وهو توحيد الله وطاعة أوامره وترك نواهيه.

والهداية هي الدلالة بتلطف، فمن دلك على شي بتلطف فقد هداك، فإذا دلك بغير تلطف فقد أمرك، وربنا هدانا بلطف بأن بعث لنا الرسل، وأنزل علينا الكتب وبين معالم السبل، فحذر من طرائق الضلالة وأبصر بطريق الحق، وهو الإسلام الذي اشتمل على سعادة الدنيا والآخرة، وحاجتنا إلى استمرار تلك الهداية وثباتنا عليها حتى نلقاه أشد من حاجتنا إلى الطعام والشراب والنفس لأنها النجاة وسبيل الفوز.

سؤال الله تعالى الهداية أجل مطلوب وأعظم مقصود، فهو خير الدنيا والآخرة، فاذا هداه إلى ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أعانه

على طاعته وترك معصيته، فهو في حمايته لم يصبه شر في الدنيا ولا في الآخرة، لذا فرضه الله تعالى على جميع عباده فرضًا متكررًا في اليوم والليلة.

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ ﴾ **يشمل طلب الهدايتين:** بيّن لنا ودلّنا وأرشدنا إلى معرفة الطريق المستقيم الموصل للعلم وللعمل الصالح، أقصر وأيسر الطرق إلى معرفتك ورضاك وجنتك. وألهمنا رشدنا ووفقنا للاستقامة عليه والثبات بعد معرفته حتى لقاءك.

فالمعرفة والاستقامة كلتاهما ثمرة لهداية الله ورعايته ورحمته، والتوجه إلى الله في هذا الأمر ثمرة الاعتقاد بأنه وحده المعين، وهذا الأمر هو أعظم وأول ما يطلب المؤمن من ربه العون فيه، فالهداية إلى الطريق المستقيم هي ضمان السعادة في الدنيا والآخرة عن يقين بتحقيق الغاية من الوجود، وهي في حقيقتها هداية فطرة الإنسان في الاتجاه إلى الله رب العالمين.

طلب الهداية يعني: أرشدنا يا ربنا ودلّنا إلى ما تحب وترضى من الأقوال والأفعال، وثبتنا ووفقنا إلى الاستقامة والاستدامة. تسأل ربك أن يهديك هذا الصراط كمنهج حياة،

وأن يرشدك إليه، وأن يعلمك إياه، وأن يثبتك عليه حتى لا ننحرف أو نزيغ ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [سورة آل عمران: آية ٨] حتى تحقق ما عاهدت ربك به من العبادة والاستعانة.

﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ **هو دين الله،** هو توحيد الله والإخلاص له، وهو الإيمان والعمل الصالح في الدنيا، وهو العبادة التي أنت مخلوق لها، فالرسول بعثه الله ليهدي إلى صراط مستقيم.

الهداية: أن تعلم حق الله عليك، وأن تعلم ما أوجب الله عليك، وأن تعلم ما حرم الله عليك، وأن تستقيم على أداء ما أمرك الله به، وعلى ترك ما حرم الله عليك، وتعمل بطاعة الله، وتحذر معاصي الله، وتقف عند حدود الله، ترجو ثواب الله وتخشى عقاب الله، والوقوف عند حدوده.

﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ **هو أداء أوامر الله عَزَّوَجَلَّ وترك نواهيه،** وأن يفعل العبد في كل وقت ما أمر به في ذلك الوقت من علم وعمل، ولا يفعل ما نُهي عنه، وأعظم الأوامر توحيده والإخلاص له، وأعظم المناهي هو الشرك به، فالله وعد المهتدين بالسعادة في الدارين، في الدنيا بالرحمة، يرحمهم

الله بالتوفيق والهداية والتسديد، وفي الآخرة بإدخالهم الجنة والرضا عنهم، هذا هو جزاء أهل ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾.

أهل ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ هم أهل الاستقامة في الدنيا عن محبة وعن رغبة، وعن صدق وعن إخلاص لله، وعن موالاة لأولياء الله ومعاداة لأعداء الله، وصبر على طاعة الله، وكف عن محارم الله، وتواصٍ بالحق، وتعاون على البر والتقوى، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر. هكذا المؤمنون، هكذا الصادقون، هكذا هم أصحاب الصراط المستقيم.

والمصلي حين يدعو ويسأل ربه سلوك ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ طريق أهل الجنه، يستشعر منة الله وفضله ورحمته حين عرّفه هذا الصراط، فيزداد قلبه محبة لله تعالى وشكرًا لنعمته، ويسأله السلامة من حال المخالفين، فيشتد خوفه من مسالك المغضوب عليهم والضالين، فيعيش بين الخوف والرجاء بعد المعرفة والحب، وبذلك تكتمل عبوديته وتتحقق سعادته.

حريّ بالمسلم أن يلهج في ليله ونهاره بطلب الهداية والثبات عليها، فإنه تعالى إذا هداك هذا الصراط أعانك على طاعته وحبب إليك عبادته وترك معصيته، فلم ولن يصيبك شر

لا في الدنيا ولا في الآخرة، ويدخل في ذلك من أنواع الحاجات ما لا يمكن إحصاؤه.

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ ﴾ تعني: اهدنا إلى الصراط، واهدنا في الصراط، أي: أرشدنا إلى لزوم الإسلام في أصله وتفاصيله الدينية، فقد يُهدَى إلى الأصل ويضل التفاصيل، فقد يهدى إلى الصلاة لكن لا يهدى إلى الخشوع فيها، والهداية لا تكتمل إلا إذا تحقق لك العلم بالإيمان والعمل الصالح بما علمت والدعوة إلى الخير والصبر على ذلك، في كل لحظة وكل نَفَس تحتاج إلى الهداية، فاحمد ربك على هذه النعمة العظيمة، واحرص على هذا الدعاء، وأحضر قلبك عند هذا الدعاء في الصلاة وغيرها؛ هذا الدعاء العظيم الذي أنت في أشد الحاجة إليه.

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ يعني: الزموه واستقيموا عليه ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ [سورة الأنعام: آية ١٥٣] وهي البدع، والمعاصي التي ينهى الله عنها، فالسبل هي البدع والمعاصي والمنكرات التي حرمها الله على عباده، فالواجب الحذر منها ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ

وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٨﴾ [سورة الحجرات: آية ٧-٨] فاللهم لك الحمد والشكر على نعمة الهداية، فهي من أعظم المنن، وهذا هو الصراط المستقيم الذي لم يعط أحد في الدنيا والآخرة أفضل منه، كما منّ الله على رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد الفتح بقوله ﴿وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿٢﴾﴾ [سورة الفتح: آية ٢] فاللهم اهدنا الصراط المستقيم إذا انتشرت البدع والخرافات، وعصفت بالناس الشهوات واللذات، واللهم اهدنا الصراط المستقيم كلما ضلت العقول والأفهام، وشطت الآراء والأقلام، واشتد الضلال والظلام.

أحضر - أخي - قلبك في كل ركعة تركعها، وتذكر هذا الدعاء العظيم، فمن لم يهده الله فمن يهديه؟ ومن لم يثبته الله فمن يثبته؟ من لم يحفظه الله في مثل هذا الزمن فمن يحفظه؟ فاعتصم بالله، وإياك أن تعتمد على نفسك الضعيفة مهما بلغت، فالله تعالى يقول ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴿٢٨﴾﴾ [سورة النساء: آية ٢٨] ﴿وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٠١﴾﴾ [سورة آل عمران: آية ١٠١].

أعلن الضعف والافتقار، وأكثر من الدعاء والانكسار للعزيز الغفار، فلا معين لك في السير على الصراط المستقيم إلا الله، لا عاصم لك من الفتن إلا الله، لا منجي لك في زمن الشهوات إلا الله، ولذا فقد كان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكثر في سجوده من قول: «**يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»(١) وفي الحديث: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ**»(٢) وفيها أهمية الدعاء وأدب الدعاء، فالسورة قد اختتمت بالدعاء.

يا من سرتم على الصراط المستقيم ، يا من تجاهدون أنفسكم للثبات عليه اصبروا وابشروا ولا يغركم كثرة الهالكين ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [سورة يوسف: آية ١٠٣] هكذا أهل الاستقامة يشعرون بغربة كلما كثرت الشهوات، فصبرًا يا من جاهدتم أنفسكم على ترك المعاصي والسيئات وصبرتم عن الشهوات، ولسان حالكم يقول: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا

(١) أخرجه الترمذي في كتاب القدر، باب: ما جاء أن القلوب بين إصبعي الرحمن (رقم ٢١٤٠) وابن ماجه في كتاب الدعاء، باب: دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم(رقم ٣٨٣٤).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة، باب: تحريم الظلم (رقم ٢٥٧٧).

عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ [الإنسان: ١٠] فأبشروا حين يقال لكم: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ [سورة الإنسان: آية ٢٢].

وللهداية مرتبة أخرى هي آخر مراتبها، وهي الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنة، نسأل الله الكريم من فضله، فمن هُدي في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه، هُدي هناك إلى طريق جنته ودار مثوبته، وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم، وعلى قدر سيره على هذا الصراط يكون سيره على ذاك الصراط.

ولينظر إلى الشبهات والشهوات التي تعوقه عن سيره عن هذا الصراط المستقيم، فإنها الكلاليب التي بجانبي ذلك الصراط، تخطفه وتعوقه عن المرور عليه، فإن كثرت هنا وقويت فكذلك هي هناك، فمن التزم صراطَه في الدنيا جازَ الصراط في الآخرة، ومَن علقتْ كلاليب الدنيا والهوى بقلْبه خطفتْه كلاليبُ جهنَّم من على طرفي الصراط، نسألُ الله الهداية إلى صراطه المستقيم إرشادًا وتوفيقًا.

من اهتدى بالدلالة والإرشاد إلى معرفة الحقِّ، واهتدى بتوفيق الله إلى العمل والثبات، وتمَّت له هدايته بأنْ يُهدى إلى تقصيره وذنبه ليتوبَ منه، كان ممن يهديهم ربُّهم إلى منازلهم في الجنة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ [سورة يونس: آية ٩].

❊❊❊

﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾.

(تفاصيل الانتماء للفريق الفائز).

فيه إسنادُ النِّعمة إلى الله تعالى وحْدَه في هِداية الَّذين أنعم عليهم؛ لأنَّها فضلٌ محضٌ من الله، وهو تفصيل بعد إجمال لقوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ فإذا جاء التفصيل بعد الإجمال ورد على نفس مستعدة لقبوله متشوفة إليه، وفيه دليل على أن العقل لا يستقل بإدراك تفاصيل الصراط المستقيم، بل هو مفتقر في ذلك إلى الشرع، فهو شعور الشوق للانتماء

والانضمام واللحاق بهذا الفريق الفائز المنعم عليهم، وهم الرسل وأتباعهم، وعلى رأسهم إمامهم وخاتمهم نبينا محمد عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وسر إعادة لفظ (الصراط) مرة أخرى لتعريفه وتعيينه والتأكيد على أن الدين في ذاته نعمة عظيمة.

هذا صراطهم، صراط المنعم عليهم، هم أهله، ممن حققوا الكمال في عبادتهم، أو حقق الله لهم ذلك من أهل العلم النافع والعمل الصالح، الذين أنعم الله عليهم بسلوكه تشويقًا إليه وتشريفًا لأهله الذين أنعم الله عليهم بنعمة الإيمان وطاعة الله ورسوله والهداية والاستقامة، عرفوا الحق وفقهوه، وعملوا به ودعَوا الناس إلى ما تعلموا، فالمنعم عليهم هم من عرفوا الحق وتمسكوا به وعملوا به، من وفقهم الله لسلوك الهدى ودين الحق، والله إنها أجل نعمة وأعظمها، هي سر السعادة في الدارين.

ثم أنت أيضًا يشتد شوقك إلى المنعم عليهم إذا علمت أنك تنجو أيضًا من الفريق الآخر، وهم المغضوب عليهم والضالين الذين تنكروا للدين القويم وللصراط المستقيم، إما جهلاً وإما تكبرًا وعنادًا.

فالمغضوب عليهم هم الذين عرفوا الحق وحادوا عنه ولم يعملوا به وجحدوه فغضب الله عليهم، كاليهود ومن سار على طريقتهم من علماء السوء الذين يعرفون الحق ويحيدون عنه ولا يَدُلُّون إليه، فاليهود تعبدوا على خلاف العلم، وتابعوا أهواءهم حسدًا وبغيًا، وهم يعرفون أن محمدًا رسول الله وأن الله بعثه بالحق، ولكن حادوا عن الحق تكبرًا وتعاظمًا وإيثارًا للدنيا على الآخرة وحسدًا من عند أنفسهم.

والضالون هم الذين لا علم عندهم ويعملون بلا علم ويعبدون الله على جهل، وهم النصارى ومن سار على طريقتهم ممن جهل الحق ولم يبال بدين الله بل اتبع هواه.

والنصارى جهال، يغلب عليهم الجهل والضلال، وهم أقرب إلى الخير من اليهود؛ ولهذا يسلم منهم الجم الغفير في كل وقت، أما اليهود فيندر أن يسلم منهم أحد، أما النصارى فكثيرًا ما يدخلون في الاسلام لأن قلوبهم أقرب إلى الخير من قلوب اليهود، فالنصارى أقرب وقلوبهم ألين من قلوب اليهود؛ لأن علتهم الجهل والضلال، فإذا عرفوا وبُين لهم رجع كثير منهم إلى الحق، أما علة اليهود فليست الجهل بل

علتهم الحسد والبغي ومخالفة الحق على بصيرة، فعلتهم خبيثة، وهي التكبر عن اتباع الحق والحسد لأهل الحق؛ ولهذا قلّ وندر من يسلم منهم، نعوذ بالله من ذلك.

و لأن سر الضلال يرجع إلى أحد هذين الأمرين؛ العلم والعمل، والوقوع في ضدهما، فضد العلم الجهل، فقد توجد عند الإنسان الرغبة في عمل الخير لكنه يسلك طرقًا مبتدعة ويجهد نفسه وهو يحسب أنه يحسن صنعًا بسبب قلة العلم ونقص هدايته. وضد العمل الهوى، فقد يكون الإنسان عالمًا بما يرضي الله وفق شريعته، لكنه لا يجد العزيمة، فيغلبه الهوى ويترك الواجب، أو يرتكب المحرم عامدًا لضعف إيمانه ونقص هدايته.

والخلاصة: أن أسباب الخروج عن الصراط المستقيم والوقوع في شرك الشبهات والشهوات إما العناد والهوى أو الجهل والضلال، فيحتاج العبد المؤمن أن يهديه الله، فقد تكون لديه العزيمة والرغبة في عمل الخير فيجهل الطريقة الشرعية فيسلك طرقًا مبتدعة (فساد العابد) وقد يكون عالمًا لكن ليس لديه عزيمة لينبعث بالعمل بهذا العلم، فيغلبه الهوى

فيترك الواجب أو يرتكب المحرم لضعف إيمانه (فساد العالم) وكلاهما على خطر.

فمن غلب عليه الاستهانة بالدين ونبذه عن عمد فهو شبيه باليهود، وهم من عرفوا الحق وتركوه، يجتمع فيهما الغضب والضلالة لقتلهم الأنبياء، فمعهم علم لكن لم يعملوا به، فأمرهم وذنبهم أخطر، فالغضب في اليهود أخص. أو ضال يركب هواه بسبب الجهل والضلالة وعدم الإصغاء لتعاليم الله، ولا يمنع أن يكون قد طرأ عليهم بعد ذلك العناد والإصرار، والضلالة في النصارى أخص بإصرارهم على أن عيسى ابن الله.

قدَّم المغضوب عليهم على الضالِّين لأن أمرهم أخطر؛ لأن الإنسان إذا كان في ضلال بسبب الجهل فإنه يرتفع بالعلم، أما إذا كان ضلاله بسبب الهوى فلا يكاد يرجع أو يتوب، ولأنَّهم أشدُّ مخالفةً للحقِّ من الضالِّين فيصعُب رجوعُهم، بخلاف المخالِف عن جهل، ولأنَّ أخص الموصوفين بالمَغضُوبِ عليهم هم اليهود، وأخص الموصوفين بالضَّالِّين هم النصارى، واليهود سابقون على النصارى في الزمن.

في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ يظهر صفات الكرم والحمد والرحمة، وقوله: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ تظهر صفات القدر والمجد، وفيها إيمان بقضاء الله وقدره، بأن النعمة كلها من الله الذي وهب الهداية لمن أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فهم الأنبياء والرسل وأتباعهم، وكفى بها من نعمة أن يكون المؤمن في صحبة هذا الركب المبارك، فلا يستوحش وإن كان وحده، ولا يكترث بمخالفة من خالف؛ لأن مرافقيه فيها في غايةِ القِلَّة والعزة، والنفوسُ مجبولة على وحشةِ التفرُّد، وعلى الأُنس بالرفيق- نبه الله سبحانه على الرفيقِ في هذه الطريق وأنَّهم هم ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [سورة النساء: آية ٦٩] ليزولَ عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشةُ تفرُّده عن أهل زمانه وبني جِنسِه، وليعلمَ أنَّ رفيقه في هذا الصراط هم الذين أنعمَ اللهُ عليهم، فلا يكترِث بمخالفة الناكبينَ.

وعندما يتوسل العبد بقوله: ﴿أَنۡعَمۡتَ﴾ أي: أنعمت بالهداية على من هديت، وكان ذلك نعمة منك، فاجعل لي

نصيبًا بأن أكون واحدًا من هؤلاء المنعم عليهم. وفي ﴿أَنْعَمْتَ﴾ توسل واستعطاف لقبول الدعاء «اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ»(١) واحسن لي في جملة من أحسنت إليهم، ربي أدخلني في هذه الزمرة، واجعلني رفيقًا لهم ومعهم، فهو توسُّلٌ إلى الله بنعمه وإحسانه؛ أي كما أنعمتَ بالهداية عليهم فاجعلْ لي نصيبًا من هذه النعمة، واجعلني واحدًا من هؤلاء المنعَم عليهم، وتصدَّق علي في جملة مَن تصدَّقْتَ عليهم، وعَلِّمْنَي في جملة مَن عَلَّمْتَهم، وأحْسِنْ إلي في جملة مَن شملتَهم بإحسانك.

والنعمة العامة تكون لسائر الخلق، أما هنا فهي النعمة المطلقة الكاملة الخاصة من كل وجه، وتكون لمن علم بالحق علمًا نافعًا وعمل به عملًا صالحًا، فهو سائر على الصراط المستقيم أصحاب النعمة المطلقة.

وفي قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَنْعَمْتَ﴾ ولم يقل (المنعم) كما في المغضوب دلالة أن أفعال الجود والرحمة تنسب وتضاف إلى

(١) جزء من دعاء القنوت، أخرجه أبو داود في كتاب الوتر، باب: القنوت في الوتر (رقم ١٤٢٥) والترمذي في كتاب الوتر، باب: ما جاء في القنوت في الوتر (رقم ٤٦٤) والنسائي في كتاب قيام الليل، باب: الدعاء في الوتر (رقم ١٧٤٥).

الله عَزَّوَجَلَّ وأن الإنعام يستوجب ذكر المنعِم، فكان من الأولى إبراز الضمير المتضمن ذكره عَزَّوَجَلَّ وأن النعمة بالهداية لله وحده؛ أنت وحدك المنعم المتفضل بهذه النعمة، أما الغضب فإن الله عَزَّوَجَلَّ غضب على كل من لم يكن من أهل الهداية إلى الصراط، وأمر المؤمنين بمعاداتهم، وذلك يستلزم غضبهم عليهم موافقة لغضب ربهم، وفيه إشعار بإهانة المغضوب عليهم وتصغيرهم في حذف فاعل الغضب مقابل ذكر فاعل النعمة من إكرام المنعم عليه والإشادة بذكره.

ثم إن النعمة هي الخير والفضل، والغضب من باب الانتقام والعدل، والرحمة تغلب الغضب، فأضاف إلى نفسه أكمل الأمرين وأسبقهما وأقواهما، وهذه طريقةُ القرآن في إسنادِ الخَيراتِ والنِّعَم إليه وحَذْفِ الفاعل في مُقابلتهما، كقول مؤمني الجنِّ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [سورة الجن: آية ١٠].

وفي قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ ليس بتخصيص يقتضي نفي كل صفة عن أصحاب الصفة الأخرى، فإن كل مغضوب عليه ضال، وكل ضال مغضوب عليه.

ونستشعر أن طريق الحق واحد، وهو الإسلام، فنلتزمه، وأن النعمة الحقيقية في الدنيا والآخرة لا تكون إلا بطاعة الله والعبودية الحقة له، وهو مسار الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، وأن المرء يحشر مع من أحب.

وفي هذا الدعاء تصريح وإقرار من الداعي بمعتقده، وتصديق به، وتوسل إلى ربه بهذا المعتقد، وإخبار به أنه ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ وأن هذا الصراط هو الحق لمن اختصهم الله برحمته ونعمته وكرامته، بل أن أوصاف المطلوب تجعله أشد طلبًا له وأعظم رغبة فيه وأحرص على تكرار ودوام السؤال.

ولما كان تمام النعمة على العبد إنما هو بالهدى والرحمة، كان لهما ضدان، هما الضلال والغضب، فأمرنا سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أن نسأله كل يوم وليلة مرات عديدة أن يهدينا صراط الذين أنعم عليهم، وهم أولو الهدى والرحمة، ويجنبنا طريق المغضوب عليهم، وهم ضد المرحومين، وطريق الضالين، وهم ضد المهتدين، ولهذا كان هذا الدعاء من أجمع الدعاء وأنفعه وأفضله، فندعوه تعالى ١٧ مرة في اليوم والليلة أن يميتنا على

الإسلام لا مبدلين ولا مغيرين، وأن يعصمنا من الانحراف، أو الافتتان بملة أهل الغضب والضلال أو غيرهم.

وعندما تلحظ مواهبهم وذكاءهم وأموالهم وتنعمهم بدنياهم وانفعال اسباب الدنيا لهم، وأنت لم تنل من ذلك شيئًا، فتذكر منة الله عليك بهدايته لك إلى النعمة ﴿أَنعَمتَ﴾ نعمة الإسلام، لا بذكائك، فالزم عبودية الله حتى تستحق ثوابه الأخروي ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧﴾ [سورة الأعلى: آية ١٧] وكن من الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة، ولا تأمن الخاتمة كيف تكون.

وكلما تقرأ (صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم﴾ تذكر من أنعم الله عليهم من قبلك، هذا الكم الهائل من المعاني المتجددة في ختام السورة يطبع في ذهن قارئ القرآن آلاف الصور عن القدوات الصالحة، الماضية والمعاصرة، وآلاف الصور عن القدوات السيئة، مما يعطيه خشوعًا رائعًا وزيادة في القرب من الله والتزام شرعه، صلاة بعد صلاة، وبذلك تصبح صلاتنا حية.

تم بحمد الله، وهو سبحانه من وراء القصد.

❊❊❊

الفهرس

- المقدمة ٥
- تعريف عام: بين يدي السورة ٩
- القسم الأول: الثناء والتوسل ٣٥
- القسم الأوسط: الإقرار ٨٣
- القسم الثالث: الدعاء ١١٨

❊❊❊